سامحني .. ياحب

سامحني .. يا حُب

أحمد فريد محمود

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : سامحنى ... ياحب

المؤلـــــف : أحمد فريد محمود

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

ت ، : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ٢٤٠١٧٤٣

فاكس : ٢٤٠١٧٤٤

التـــــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقـم الإيــداع : ٩٨/١٥٢٥٤

الترقيــم الدولى : ISBN

977-303-063-6

فراق القلوب بتفاهم ..

أصدق من تعايش الحب بجهل

أحمد فريد

(١)

أوقفت فجأه محرك سيارتها، وراحت تتأمل مجموعة من الأطفال وهم يلعبون ويتلاحقون وراء بعضهم البعض .. كانت تتابع بنظرها تصرفاتهم البريئة ، والحرة من كل قيد .. بعضهم يختبىء وراء الأشجار الكثيفة والبعض الآخر ينبطح أرضاً فى محاولة لأخفاء أجسادهم الرقيقة بين حشائش الحديقة المنبسطة .

وجدت نفسها تهبط من السيارة لتقف شاردة وكأنها لم تر منظرا كهذا من قبل .. الشمس لا زالت محتملة، والمناخ الربيعى يرفرف حولها، غير مبالية بشىء يحدث عند جانبها أو خلفها .. كل شىء توقف فى مخيلتها عند تلك الصورة .. أطفال يلعبون ويلهثون .. ويصيحون، لاشىء يثير الأنتباه .. إلا إنها لم تقو على الابتعاد عن المكان ومواصلة سيرها .. فوقفت صامتة تراقبهم بهدوء .

لم تكن صفاء غريبة عن الحى .. ليست بأجنبية أو سائحة، بل تكاد تكون معروفة لأغلبهم .

السيارة الفارهة .. والأموال الطائلة .. والفساتين الباهظة .. والحياة المرفهة لدرجة التبذير .. الخدم والسائقين .. الموظفون ووكلاء الأعمال . المجوهرات والعقارات .. كل هذا لم يستطع أن يحول دونها وتلك المنطقة التى تقع فى أعماق امبابة .. حتى ملامحها لم تتغير .. هى كما هى .. فقط ازدادت نضوجا وفتنة .. فهى جميلة بحق .. بل رائعة الجمال .. لها قوام ممشوق كزهرة عباد الشمس ،

ووجه مستدير يرعاه شعر طويل بلـون الليل فـى السماء الصافيـة .. وعينان واسعتان تستقران بين أهداب كحد السيف .. وفم دقيق وعنق فرعونية ، ولفتات شامخة ، وخطى تكتنفها الكبرياء .

صفاء ابنة امبابة التى عاشت وسط أسرة فقيرة تكاد تحصل علـى قوتها يوما بيوم .. والدها كان أحد المزارعين البسطاء ، استطاع أن يحصل على قيراطين بعد سنوات طويلة من الكد والمثابرة، فأقام عليهما مبنى يضمهم جميعا .. وخدعته فحولته واستهوته فكرة كثرة الأنجاب حتى أصبح لديه تسعة أطفال .. كانت صفاء الرابعة .. وهى أيضا البنت الوحيدة .. ثمان ذكور وفتاة واحدة .. لهذا كانت شبه مدلله وإن كان أسلوب التدليل مختلفا عن مفاهيم الكثيرين .. فتدليلها كان فى قطعة لحم زائدة يقتصها الأب من نصيبه ليمنحها إليها . أو يسمح لها بغسيل شعرها أكثر من مرة فى الأسبوع، فالماء النظيف يحتاج لعناء لإحضاره من الصنبور العمومى .. أو السماح لها بالجلوس بين أبويها، وكان ذلك يتيح لها سماع مالم يكن ممكنا أن يسمعه باقى أخوتها .

كانت تخزن فى أعماقها دون أن تدرى كل ما يحيط بها وتسمعه، سواء من شكوى أبويها وقلة حيلتهما أو لحظات سعادتهما البسيطة والقليلة أو عن أمالهما فى تربيتهم جميعا .

صفاء ابنة حى امبابة التى عاشت لا تعرف عن الحياة أكثر من أن الكون فيه ليل ونهار .. ونوم ويقظة .. وجوع وشبع .. بكاء وفرح .. لا شىء أكثر من هذا ، حرمها جهلها بالقراءة والكتابة من متابعة أيه أحداث تدور حولها .. ولكنها كانت جميلة .. وجمالها هذا

كان يخفى كل النواقص فى حياتها .. يكفيها إنها الوحيدة التى كانوا يدللون اسمها عندما ينادونها قائلين .. يابنت ياصافى .

وكانت راضية .. بل وسعيدة بتلك المكانة التى وجدت نفسها عليها وسط أقرانها .

تحركت تقطع الطريق سيرا فى اتجاه الأطفال ، وحين دنت من إحداهن وكانت لم تتجاوز العشر سنوات . بادرتها فى تلطف قائلة :

ما اسمك ياحبيبتى !

أجابت الطفلة ببراءة .. وجرأه :

- اسمى زينب

- أتذهبين إلى المدرسة

قالت وهى سعيدة .

- نعم أذهب .. أنا اسمى زينب وأيضا الأبلة اسمها زينب

ترقرقت ابتسامة على شفتى صفاء قبل أن تسألها :

- كم عمرك يا جميلة .

- عمرى تسع سنوات ونصف

وبلا تردد أخرجت صفاء بضعة نقود من حافظتها ومدتهم إلى الطفلة قائلة :

- خذى هذه النقود .. إنها لك .. اشترى بها ما تحبين

تناولت زينب النقود وهى تردد فى انبهار :

- إنها كثيرة .. كلها نى .. أنا لم أمسك بهذا المبلغ من قبل ..و..

ثم سكتت لحظة قبل أن تردف :

- ولكن لماذا تعطينى هذه النقود !

- لأنك جميلـة .. هـل تحبيـن أن يكـون لـك فسـاتين جديـدة ولعب .. ونقود كثيرة .

أجابت بسرعة :

- نعم أحب .. أنا كل عيد أبويا يشترى لى فستان جديد

فاجأتها صفاء قائلة :

- مارأيك .. لو تأتى معى .. سأشترى لك فساتين كثيرة ولعب جميلة .. وسأعطيك فلوس كثيرة جدا .

انتبهت الطفلة فى لحظة ترقب .. ثم قـالت بحـزم وهـى تعيـد إليهـا النقود:

- لا .. أنا أحب اللعب هنا مع أصحابى .

وأطلقت ساقيها مسرعة .. ومختفية بين زميلاتها تلعب وتلهث وكأن شيئا لم يكن ..و.. تركت صفاء واقفة كالمذهولـة، وكأنهـا هـى الأخرى عاشت لحظة من لحظات حلم عابر قد اقتحم عليها يقظتها .

تراجعت إلى سيارتها واندست بداخلها ثم انطلقت بهـا دون أن تتلفت خلفها .. ولكنها لـم تستطع أن تتخلـص مـن صـورة المـاضـى، الذى أتى من خلال ذكريات مضى عليها أكثر من خمسة عشـر عامـا يوم أن كانت طفلة لا يزيد عمرها عن ثمانى سنوات .

إنهـا تتذكـر ذلـك اليـوم جيـدا .. فهـو نقطـة تحـول فـى حياتهـا الحقيقية . تذكر يوم نادتها أمها وسألتها فجأة دون أن تدرى شـىء .. تحبي يكون عندك فساتين كثيرة .. ولعب جميلة .

يومها صرخت صفاء من الفرحة وهى تردد .. أحب – يا أمـا – ياريت يكون عندى فساتين ولعب

لم تكن تدرى صفاء فى ذلك اليوم أن لكل شىء مقابل .. وكان مقابل تحقيق أمنيتها هو انتقالها إلى منزل عائلة ثرية تعيـش فـى حـى راق مختلف تماما عن منطقتها .. ومع مرور الأيـام أدركـت بحسـها الفطرى بأن تواجدها وسـط هـذه الأسـرة الثريـة مرتبـط بخدمتهـا لهـم وكان عليها أن تتأقلم راضية أو غير راضية على ذلك الوضـع الجديـد بالرغم من إنها وجدت نفسها فجأه وهى فى هذا السن الصغـير تحمـل مسؤلية كبيرة، لم تكن تتخيل قط إنها ستوكل لها يوما .

هكذا .. طفلة فى عمر الزهور تصبح مسئولة عن خدمة أسـرة بها أطفال فى مثل عمرها .. ولكنهم لا يعيشون مثلها .. ولايشـعرون كما تشعر .. وجدت نفسها تنوء بمسئوليات عديدة .. تستيقظ مبكـراً، قبل الجميع .. لتعد الإفطار والشاى .. ثم تتحول إلـى ترتيـب المنزل .. ثـم تتهيـأ لشـراء متطلبـاتهم مـن الخـارج .. ثـم تعـود إلـى المطبـخ وتنتهى منه .. وما بين العمـل والآخـر كـان عليهـا أن تلبـى نداءاتهـم المتعددة .. فلكل منهم طلبـات خاصـة .. وهـى لا تملـك غير كلمـات قليلة تلك فقط المسموح لها بترديدها .

.. طيب .. حاضر .. نعم الإفطار جاهز .. كل شىء معد.

وهكذا عاشت صفاء بينهم مقابل أن ترتدى فستانا من فساتين واحدة من أطفالهن .. أو تختلس دقائق فى الظلام لتلعب بأية لعبة من اللعب الكثيرة المتناثرة فى المنزل .

توقفت بالسيارة أمام بناء فى شكل البرج فى حى مصر الجديدة ونزلت منها بثقة متجهة إلى البوابة العريضة .. وبمجرد ظهورها أنتفض الحارس مهرولا أمامها وهو يردد كلمات الترحيب إلى أن وصلت إلى باب الأسنسير ففتحه لها وهو يقول :

– تفضلى ياهانم ..

وبالرغم من إنه لم يمض لحظات كثيرة إلا أن الأسانسير انتقل بها إلى الدور العاشر حيث تقطن .. وبنفس الطريقة استقبلتها عاملة المنزل بكل ترحاب ورهبة .. وما إن اندلفت إلى غرفتها حتى ألقت بنفسها فوق فراشها الوثير بعد أن أغلقت الباب خلفها .. واسترخت بلا تكلف كأنها اطمأنت لوحدتها ..و.. لكنها لم تكن تتوقع أن تلازمها صورة الطفلة زينب، تلازمها حتى فى غرفة نومها .. أعادت إلى ذهنها كلماتها وهى تردد بإصرار :

.. لا .. أنا أحب انلعب هنا مع أصحابى .

تمنت للحظة لو كانت استطاعت أن تقول هى نفس الكلمات عندما كانت طفلة .. راودها إحساس أقرب للحسد .. تحسد طفلة فقيرة .. لاحول لها ولا قوة .. وهى تنعم بكل هذه الثروة .. تحسدها لإنها قالت مالم تستطع أن تقله هى .. تحسدها لإنها حتما ستعيش حياتها التى حرمت هى منها .

أغمضت جفنيها كأنها تخشى أن يرى أحد ذكرياتها أو أن يكتشف البعض كيف كانت قبل أن تصبح هكذا .

و .. استرسلت مع ذكرياتها يوم عادت إلى منزل أبيها مرة أخرى .. عادت دون أن تدرى لماذا عادت .. كما ذهبت دون أن تعلم لماذا ذهبت !

كل ما تتذكره فى تلك الليلة صوت أمها وهى تهمس إلى أبيها قائلة:

.. البنت كبرت يا أبوسعيد - وبيقولوا إنها خطر على الأولاد.

هكذا تحولت من طفلة بريئة جميلة إلى إنسان خطر .. لم تكن تدرى ما هى الخطورة التى تقوى على الإقدام عليها .

فى حينها لم تكن تعلم أن جمالها هو مصدر خطورتها الوحيد .

وتوالت الأحداث سريعة .. كانت قد تجاوزت الثالثة عشر بقليل من الأسابيع وبدأت تراود سعيد شقيقها الأكبر فكرة مربحة تماما .. فهو استطاع أن يحصل بصعوبة على عمل فى إحدى دول الخليج .. وقد واتته فرصة العمر فجأه .. تمثلت فى رغبة صاحب الورشة التى يعمل بها فى الزواج للمرة التاسعة .. ولكنه وعد بأن تكون الأخيرة .. فعمرة لن يسمح له بفرص الاختيار حتى ولو كان يملك أموال الدنيا .. إنه فى السبعين .. ووجدها سعيد فرصة لضمان بقائه فى العمل .. فرصة تدر عليه ربحا متصلا ومعاملة خاصة .. فهو يملك ما لايتوفر لغيره من العمال .. يملك أكثر من الموهبة والخبرة وإتقان العمل .. إنه يملك جمال شقيقته الطفلة الصغيرة .

ودارت حولها الدنيا وهى أيضا لا تدرى .. وكثرت الكلمات أمامها دون أن تعرف لماذا .. وأين .. وكيف .

أخذت لطبيب لصحة .. يجب أن تصبح فى سن الزواج .. علمت فيما بعد أن عمرها أصبح ستة عشر عاما ....

هكذا فجأة .. ولأول مرة تسمع عن شىء اسمه جواز السفر ... ثم جاء دور المأذون ... يومها فقط تجرأت وسألت أمها :

- هل سأتزوج أخى ؟!

ولكنها علمت أن هناك شىء آخر اسمه الزواج بالتوكيل ... وتمت الصفقة بسرعة ... وبهدوء ...و... سافرت

تململت صفاء فوق الفراش قبل أن تنهض ببطء ... واتجهت إلى المرآة وهى تتخلص من ملابسها قطعة وراء قطعة .. تأملت جسدها وهى شاردة مع ذكرياتها ... وتذكرت أول ليلة من ليالى غربتها ... حيث وجدت نفسها فجأة وحدها مع رجل غريب فى عمر جدها الذى توفى ... رجل بقدر عناده مع الزمن بقدر شراسته معها ... فى هذا اليوم فقط عرفت أن لديها مهمة أخرى تختلف عن مهمتها مع الأسرة الثرية ... كان ذهولها يكتم صرخاتها .... انبهارها يقبر كل التساؤلات فى أعماقها ... قله حيلتها تحول دون أن تعترض ... بشاعة ما ترى وتشعر جعل منها دمية لا حياة فيها ... بات الخوف أنيسها والعجوز جليسها ... والبكاء رفيقها ... لا ترى أحدا ولا أحد يراها .. الرجل لا ينجب ، ودفعه هذا النقص فى أن يخفيها عن الآخرين، حتى شقيقها سعيد كاد أن ينساها فى خضم رغباته فى جمع المال، واستهوته

المعاملة الخاصة ... وزحفت أسارير السنين على مشاعرها قبل أن تزحف على جسدها وأصبحت حياتها مابين محاولات العجوز في معاندة الزمن وبين وحدتها بين الجدران الصلدة الصماء ... عشر سنوات والرجل يخفي عجزه من خلال أسوأ معاملة يمكن أن يعامل بها إنسان ... كان ينشب أظافره في جسدها لعله يثبت لها إنه متواجد معها .. كانت تطربه صرخاتها وهو يجذبها بقسوة من شعرها لعلها تحب قوته العضلية عوضا عن قدرته الجنسية ... فكرهته وكرهت أخاها ... وكرهت الزواج، .....و.. كرهت جمالها .

وفجأة مات الزوج وكان عليها أن تعود إلى بلدها ، لتكتشف بأنه كان رجل أعمال ناجح في مصر أيضا ولديه شركاته الكبيرة، والكثير من العقارات وأرصدة البنوك .. كل هذا فجأة .. وجدت نفسها أقرب إلى أن تكون مليونيرة غابت عشر سنوات، وهي لاتملك غير فستانها لتجد نفسها إلى هذا الحد من الثراء .. والتفت الأسرة حولها .. كلهم في حالة ذهول وانبهار منذ اللحظة التي أبلغهم فيها محامي الزوج بأن ابنتهم هي الوريثة الوحيدة .. وبأن شيخها كان قد كتب لها كل أرصدته وممتلكاته .. وبدأ أشقاؤها يقترحون ويخططون للمستقبل .. اقتراحات متناسبة مع أعمالهم اليدوية والفنية فالسباك يريد معرض صحي، والنجار يريد ورشة بالكهرباء .. والميكانيكي يريد مجمع لتصليح السيارات .. وصبي محل الأحذية يريد أن يكون صاحب متجرا .. وسعيد يريد أكبر ورشة حدادة في مصر...و...و...

أما هى فكانت تريد شيئا آخر .. كانت أقصى أمانيها أن تتعلم كيف تكتب اسمها .. تريد أن تتعلم التوقيع على الأوراق كما كانت ترى وتسمع .. فكيف يمكنها أن تتسلم كل هذه التركة دون أن توقع على الأوراق .. كانت المشلكة بالنسبة لها أكبر من كل الظروف التى مرت بها .. أمضت ليالى طويلة تفكر .. إلى أين تذهب . وكيف ستواجه الآخرين .. وماذا ستفعل ، هداها تفكيرها البسيط أن تلجأ إلى إحدى فتيات الحارة اللواتى دخلن المدارس .. وطلبت منها سراً أن تعلمها كتابة اسمها . أن ترسم لها الحروف فقط .. وحفظتها بل واتقنتها من خلال رغبة شديدة للوصول إلى غايتها . وكانت أسعد لحظات حياتها عندما تأكدت أنها يمكنها كتابة اسمها دون أن يلحظ أحد بأنها تجهل القراءة والكتابة .

وبالرغم من هذا كانت مترددة للذهاب إلى الشركة .. كانت تشعر بالخوف وبالنقص .. كل يوم ترجىء قرار ذهابها لليوم الآخر .. لا تعرف كيف ستواجه الموظفين .. وماذا ستقول .. ومن أين تبدأ.

ولكنها اليوم أبلغت أسرتها عندما كانت فى زيارتهم بأنها قررت الذهاب إلى الشركة فى اليوم التالى .. واتصلت بالمحامى ليمهد لها .. وعند عودتها كان لقاؤها بزينب التى ذكرتها بماضيها ..و.. غابت صفاء فى نوم عميق وكأنها عادت من رحلة طويلة وشاقة أنهكت قواها .. فأغمضت جفنيها على ذكرياتها .. لعلها ترى مستقبلها بوضوح .

(٢)

ترددت قليلا وهى تختار فستانها الذى ستذهب به إلى مقر الشركة هل ترتدى فستانا أسود أو تضع على رأسها إيشارب بنفس اللون تعبيرا عن ملامح الحداد على زوجها المتوفى .. أم تذهب بملابس عادية الألوان .. هى لم ترتد ألوانا قاتمة منذ لحظة وفاته، فكيف تتظاهر بالحزن أمام الجميع وهى غير حزينة البته .. ولكنها خائفة من الأقاويل المتهامسة .. لا تعرف ماذا يجب أن تفعله فى مثل تلك الظروف . حتى وهى فى طريقها بالسيارة إلى الشركة، كانت لا تزال تفكر فيما يجب أن تفعله . بالرغم من أنها قررت ألا ترتدى ملابس الحداد .

شعرت بالرهبة تسرى فى كيانها وهى أمام باب الشركة، ووقفت ساكنة لاتقوى على الخطى، وقد انشل تفكيرها تماما .. الحيرة تملكتها والاضطراب يقرع فى عروقها مع نبضات قلبها .

ولمحها عم مصطفى ساعى الشركة، فتقدم منها بهدوء وسألها:

- تفضلى يا ابنتى .. ادخلى !

اهتزت شفتيها فقط دون أن تتفوه بحرف .. فأردف مره أخرى:

- أى خدمة ياابنتى .. هذه شركة ... قد تكونى مخطئة فى العنوان .

أجابت بصعوبة :

- لا .. لست مخطئة .. أنا صفاء السيد

لم يهتم عم مصطفى وقال غير مبال :

- أهلا وسهلا .. أية خدمة !

- أنا صفاء السيد حرم المرحوم الشيخ المهدى .

وسرت كلماتها فى الشركة وكأنها ماس كهربائى شمل كل شيء فيها حتى جدرانها .. وعم مصطفى يسعى متماسكا وهو يكاد يقفز أمامها مهللا بصوت سمعه البعيد قبل القريب :

- تفضلى ياهانم .. أهلا ومرحبا ، تفضلى ياهانم، مكتب سعادتك من هنا .. يا مرحبا .

وما أن بدأت خطواتها الأولى داخل الممر حتى ازدحم المكان بكل العاملين بالشركة .. بعضهم يتسابق إليها والبعض الآخر يتزاحم ليراها بوضوح وآخرون يتولون إفساح الطريق أمامها .. والجميع يكادون يرددون عبارات مشتركة :

تفضلى ياهانم .. مرحبا وأهلا وسهلا .. البقية فى حياتك ياهانم ..

شرفت الشركة ياهانم .

بينما ارتسمت ابتسامة مضطربة على شفاه صفاء وهى تسير بخطى تبدو ثابتة فى اتجاه مكتبها .. وهو مكتب الشيخ المهدى سابقا .. وكأنها فى موكب عرس .

كادت أن تكشف عن رهبتها عندما دخلت المكتب حيث بهرتها فخامته ووقار أثاثه، ولكنها تماسكت بصعوبة . ولم ينقذها سوى تركهم لها . بعد أن أغلقوا الباب دونها .. ووجدت صفاء نفسها تجلس وراء المكتب الفخم الكبير وقد تراصت مجموعة التليفونات بأشكالها المختلفة .. وراحت تمسح المكان بنظرها لتغوص داخل المكتبة العريضة التى امتلأت بالملفات والمجلدات . وفى الناحية الأخرى استقرت مائدة الاجتماعات المستطيلة .. وبعض المقاعد الوثيرة واللوحات الثمينة .. والبساط الفاخر .. وأجهزة التكييف .. وأمامها شاشة صغيرة للكمبيوتر تصورتها أنها لتليفزيون صغير .. وأشياء كثيرة تجهلها كانت بجانبها وأمامها وفوق مكتبها .

انتبهت لدخول عم مصطفى بعد أن طرق الباب طرقة خفيفة .. ووقف أمامها متأدباً للغاية .. ثم همس :

- حضرتك تأمرين بمشروب ساخن أم بعصير مثلج

أجابت باقتضاب .

- أريد قهوة

وقبل أن يكمل عم مصطفى استدارته استوقفته ثانية قائلة !

- ما سمك !

- اسمى مصطفى ياست هانم .. خادمك مصطفى .

رمته بنظرة سريعة .. كان رجلا فى الخمسين من عمرة . له شعر أشهب وشارب قصير . ويميل للبدانة بعض الشىء .

- اسمع ياعم مصطفى .. مرة ثانية لاتكتفى بطرق الباب لكى تدخل .. عليك بالأنتظار لحين آمرك بالدخول .

تلعثم الرجل قبل أن يقول :

- سامحينى ياهانم .. فأنا لم أقصد .. ولكنها بحكم العادة كما كنا نفعل مع الشيخ المهدى .

ارتفع صوتها قليلا ولكن بحزم :

- اسمه المهدى بك .. ولا أحب أن أسمع أحدا يذكره بالشيخ المهدى .. أسمعت .

- نعم ياهانم سمعت .. وسأخبرهم جميعا بذلك .

عادت لهدوئها وهى تقول :

- أخبر الموظفين بأننى أريدهم لكى أتعرف عليهم .

- سمعا وطاعة ياهانم .

واختفى عم مصطفى فى ثوان قليلة .

سكتت شاردة تفكر فيما فعلته مع عم مصطفى .. حائرة لماذا عاملته هكذا .. ما الذى جعلها تبدو فى صورة عنيفة ومتكبرة .. هل تخشى أن يراها أحد فجأة وهى تفكر فيكشف حقيقة أمرها ! هل قررت أن تختفى وراء تلك الصورة حتى تأمن استفسارات الآخرين ! هل ترغب فى أن تحد من علاقاتها بهم ..! هى نفسها لا تعرف لماذا فعلت ذلك مع أقل وظيفة فى الشركة .. فكيف ستتعامل مع غيره !..

و.. سمعت طرقة خفيفة على الباب .. فسارعت قائلة :

- أدخل ياعم مصطفى .

وكانت مفاجأة لها عندما ظهرت أمامها فتاة فى الثلاثينات وتقدمت نحو مكتبها بهدوء وهى تحتل فوق شفتيها ابتسامة مصطنعة وقالت :

- أهلا بحضرتك .. وحمدا لله على سلامة وصولك .

أجابت وهى تقاوم إحساس ما بالإنقباض :

- الله يسلمك .. أنت موظفة هنا .. سكرتيرة !

- أنا هيام سالم .. مديرة مكتب الشيخ المهدى .. أقصد مديرة مكتب المهدى بك

شعرت صفاء بالارتياح لأن تعليماتها قد وصلت .. فقالت بهدوء :

- يمكنك أن تجلسى .. فبيننا حوار طويل يجب أن يتم .

جلست هيام أمامها ، ولكنها لم تسقط نظرتها عنها، كأنها بدأت حواراً صامتا معها .. وكأن كلا منهما تدرك ما يدور فى خلد الأخرى وبادرت صفاء قائلة :

- أخبرينى ياهيام بكل تفاصيل عمل الشركة .. أريد أن أعرف كل شىء عنكم وعن طريقة عملكم .

وبفتور شديد أجابت هيام :

- أعمال الشركة كثيرة ، وسوف أحضر لحضرتك كل المستندات والبيانات التى تفيدك فى معرفة كل شىء .

قالت بحزم :

- أنا لم أطلب مستندات الأن أو ملفات .. أنا طلبت أن تخبرينى بكل شىء .. أعتقد ان طلبى واضح .

بدت ابتسامة باهتة على شفتى هيام وهى تردد :

- طبعا ياهانم .. طلبك فى غاية الوضوح ..و..

وبدأت تسرد لهـ بعض أعمال الشركة، بينما انشغلت صفاء فى فحصها وتأملها .. كانت هيام من النوع الذى يفيض أنوثة هادئة إلى حد الفتور .. لها بشرة قمحية اللون . وشعر كستنائى مائل للاحمرار . وفم ذو شفاه عريضه بعض الشىء .. وعينان يضمان نظرات ناعسة .. لم تستطع صفاء أن تتخلص من حالة الأنقباض التى هاجمتها منذ رؤيتها له .. ولكنها حاولت ان تستفيد منها بأكبر قدر من المعلومات التى أسعدها بعضها وأتعسها البعض الآخر.. حيث علمت منها أن للشركة فروع متعدده ولها أعمال مختلفة ، تدر أرباحا تكاد تكون خيالية، ولكن فى نفس الوقت عليها التزامات كبيرة جدا قد تدمر كل شىء فى حالة عدم الوفاء بها .

فماذا تفعل صفاء إذن وسط تلك الدوامات !؟

ترددت برهة قبل أن تقاطعها :

- هذا يكفى .. والأن ارسلى فى طلب مدير الشركة لكى يقوم بمهمة تعارفى بالباقين .

قالت الأخرى بتحد :

- نسيت أن أخبرك ياهانم أننى أقوم الأن بدور مدير الشركة أيضا

- ماذا قلت .. تقومين بدور مدير الشركة .. على أى أساس ومن سمح لك بذلك ؟

أجابت ببرود :

- بحكم اقترابى من الشيخ المهدى .. آسفة .. من المهدى بك .. فكان يطلعنى على كل كبيرة وصغيرة فى الشركة .. وكذلك الأستاذ شريف فريد ، كان يعتمد على فى كل شيء ..و..

قاطعتها :

- ومن هو شريف فريد !؟

أجابت هيام بنبرة متهكمة بعدما لاحظت تعمد صفاء بأن تجرد الأسماء من صفاتها وقالت :

- الدكتور شريف فريد .. دكتوراه فى علم الاقتصاد وإدارة الأعمال.

تساءلت بهدوء حذر :

- أقصد ما هو موقعه فى الشركة .؟

- لقد كان نائب رئيس مجلس إدارتها .. ولكن ..

ومرة أخرى تقاطعها :

- اذن ارسلى فى طلبه .. أريده الأن هنا فى مكتبى .

- إنه غير موجود ياهانم .. ولن يكون موجودا بعد اليوم.

- ماذا تقصدين .

أطلقت هيام زفرة من صدرها قبل أن تقول :

- لقد أصيب فى حادث سيارة، قبل وفاة المهدى بك بثلاثة أشهر

- ألا يزال تحت العلاج .؟

- وسيظل على ما أظن إلى الأبد .

- ولماذا تتوقعين ذلك ؟

- لإنه فقد بصره ..و..

نهضت من أمامها وهى تردد :

- أتحبين أن أستدعى لك الموظفين الأن ياهانم .

وبلا تردد قالت :

- لا .. لا ليس الأن .. فأنا مشغولة بأشياء أخرى .. يمكنك أن تنصرفى .

ولم تكن صفاء فى حقيقة الأمر مشغولة بشىء .. فليس لديها ما يشغلها، ولكنها مرعوبة من مواجهتهم .. تخشاهم وتخشى المسئولية .. إحساسها بالنقص جعلها مترددة .. حاولت أن تتنيب عن

الشركة أيام كثيرة .. تصنعت الأنفعال تارة والأنشغال تارة أخرى .. ولكن .. فى النهاية وجدت نفسها مضطرة للحظة المواجهة .. وعلى غير توقعاتها كان الأمر أيسر بكثير مما كانت تتوهم .. فأغراها حسن استقبالهم، وكلماتهم المعسولة، والكثير من نفاق بعضهم . كل هذا أغراها لأن تستمر فى اللعبة .. وكلما اقترب أحدهم منها مستفسرا عن شيء أو باحثا عن قرار عندها، كانت تراوغ بطرق متعددة فكثيرا ما كانت تبدو عصبية رافضة لكل المقترحات المقدمة إليها. غير راضية عن أسلوب عملهم جميعا .. حتى أنها فى أغلب الأحيان كانت تكشف عن ثورتها وتطلب طلبات غير مفهومه ، ثم تختفى لعدة أيام لعلهم ينسون .. ولكنهم لا ينسون .. خاصة هيام سالم التى دأبت على مطاردتها فى كل لحظة بالعديد من الملفات والمستندات، فتطلب منها التوقيع أو اتخاذ قرار بإلحاح شديد، حتى أنها فاجأتها ذات يوم قائلة :

- ياصفاء هانم .. العمل سوف يتوقف بهذه الطريقة .. فأنا أريد رأيك الأن من فضلك .

وشعرت صفاء وكأن الأخرى تعرف كل شيء عنها .. تريد أن تورطها أو تكشفها .. وجدت نفسها فى نهاية طريق مسدود لا مخرج منه .. فلابد من توقيعها على كثير من الأوراق التى تجهل فحواها .. ولابد من كتابة ملاحظات وقرارات على أغلب شئونهم المالية والإدارية .

كما أن هيام تعمدت أن تبخل عليها بالمساعدة .. كل شيء أمامها غامض .. كانت ترى كل الأمور أمامها مريبة .. الشك يملأ

صدرها فى كل من حولها .. كلما نظر إليها أحدهم تصورته يهمس إلى نفسه بما لا تحب أن تسمعه .. وكلما تحدث إليها أحد تصورت إنه يتهمها بالغباء والجهل .. خاصة نظرات هيام وتلميحاتها .. ولطالما شعرت برغبه شديدة فى ان تثور فى وجهها .. فى أن تمنعها من الدخول إليها أو تطردها خارج الشركة، ولكنها فى كل مرة تجد نفسها أضعف بكثير من اتخاذ ذلك القرار .. وكان عم مصطفى هو الأنسان الوحيد الذى تشعر تجاهه بالأمان ربما لكونه مثلها أو كانت مثله ذات يوم .

ولذلك تحينت أول فرصة وجدته فيها أمامها ... وقررت أن تسلك مسلكا آخر عساها أن تجد لديه مخرجا فبادرته قائلة : -

- كم لك فى الشركة ياعم مصطفى ؟

- خمس سنوات ياهانم

- إذن تعرف الأستاذ شريف فريد جيدا

أطلق الرجل زفرة من صدره متحسرا وهو يقول : -

- أعرفه .... كيف لا أعرفه .... إنه فى نظرى أعظم إنسان فى الوجود .. لقد كان ياهانم دائم العطف على وكانت كلمته مسموعة ورأيه صائب .... ولا أحد كان يجرؤ فى الشركة كلها أن يخالف له أمرا .

قالت بدهاء :

- حتى هيام

ارتبك عم مصطفى وازدرد ريقه قبل أن يقول :

- الأستاذة هيام إنسانه طيبة .. ولكنها أيضا كانت تتلقى الأوامر منه.

غابت مع نفسها فى لحظة صمت، وكأن خاطر ما راود مخيلتها فجأة ... ثم سألته بحسم :

- هل تذهب إليه فى المنزل ... هل تعرف أين يسكن ؟

أجاب خائفا :

- أنا لا أنقل أية أخبار عن الشركة ياهانم .. أقسم لك أننى.....

لكنها قاطعته برفق :

- ياعم مصطفى أنا لا اتهمك بشىء ... أنا فقط أريد أن أعرف هل تعلم أين يعيش ومع من ؟

قال مستسلما :

- أنا أعرف أن له صديق لا يفارقه أبدا ... هو الأستاذ عمرو

- ومن هو الأستاذ عمرو ؟

- هو يعمل فى فرع الشركة بالاسكندرية .... ولكنه كان دائم الاتصال به ... لدرجة أنه طلب من المهدى بك الأنتقال إلى المقر الرئيسى هنا ليكون بجانبه بعد الحادثة المشئومة ...و..

صمت برهة قبل أن يردف :

- لأن الأستاذ شريف يعيش بمفرده .... وقد طلب منى الأستاذ عمرو ذات مرة أن أبحث له عن إنسان يقوم على خدمته...و... قاطعته مرة أخرى :

- وهل أتيت له بأحد ؟

- حاولت ياهانم ... فكلنا نتمنى خدمة الأستاذ شريف ... لكن يبدو أن الأستاذ عمرو أتى له برجل ليقوم على خدمته .

ولم تضيع صفاء وقتا فى التفكير ... واتصلت بفرع الشركة بالاسكندرية واستدعت عمرو فورا بعد أن حددت له موعدا .

وكان عم مصطفى صادقا فيما قاله عن عمرو، فهو بالفعل كان ولا يزال أقرب صديق إلى شريف ... فلم يتركه إلا لظروف عمله .... ولكنه كان يحضر إليه في كل عطلة أسبوعية ليقضى معه يوم أو بعض يوم ثم يعود إلى الاسكندرية ليتابع اتصاله به عن طريق التليفون .

كما أن صفاء أيضا شعرت بذلك النقاء الذى فى طبيعة الصديق الوفى، بالإضفة إلى ملاحظتها لكونه ظريفا يميل إلى الفكاهة والاستهتار بكل مشاكل الحياة .

وبالرغم من إنه كان أول لقاء يجمع بينهما فى مكتبها إلا أنه كان غير متكلفا أو متصنعا الاتزان .. فما إن بادرته قائلة :

- علمت أنك الصديق الوحيد للأستاذ شريف

فأجابها على الفور .

- هو لن يجد أفضل منى على كل حال .

طمأنته بابتسامة هادئة قبل أن تقول :

- لقد استدعيتك لأننى أريد التعرف به ... ونظرا لظروفه فلقد قررت أن تأتى معى ونذهب إليه سويا .... والآن .

قال بلا مبالاة :

- الآن .... الآن فأنا لا أخشى أحدا ... على كل حال سأضيف أجرة التاكسى على حساب الشركة .

أجابت ضاحكة لأول مرة :

- لا داعى للتاكسى ... ستأتى معى بالسيارة .

- ليس لدى مانع ... خاصة إذا كانت سيارة حضرتك مرسيدس .

و .. فى الطريق استطاعت صفاء أن تعلم الكثير عن شخصية شريف فريد التى بهرتها قبل أن تراه .

علمت إنه يعيش بمفرده بعد وفاة والدته منذ ثلاث سنوات وأنه يحب عمله إلى درجة كبيرة جدا وعلمت أيضا كيف أصيب فى الحادث عندما كان عائدا من عمله وصدمته شاحنة كبيرة كان سائقها نائما وراء عجلة القيادة وأن الأمل فى شفائه ضعيف جدا خاصة وأن تكاليف العملية فى الخارج تتجاوز العشرين ألف دولار، وهو لايملك

ربع ذلك المبلغ، فاستسلم ساكنا للظلام دون تذمر أو شكوى ... وعلمت أيضا أن عمرو يكاد يكون الصديق الوحيد له بالرغم من كثرة معارفه ...و....

وصلت السيارة إلى حى المهندسين حيث يعيش شريف فريد داخل فيلته الصغيرة مع خادمه العجوز .

وطرق عمرو الباب عدة طرقات يبدو إنه عُرف بها وبطريقته عندما يحضر إليه كل سبوع .. ولكن الأمر مختلف تلك المرة ... فموعد الزيارة غير الموعد المحدد دائما ، مما دفع الخادم أن يتساءل قبل أن يفتح الباب .

– من بالباب !

أجاب عمرو مازحا :

– أنا بائع اللبن ... افتح ياعم حسين أنا عمرو

ودخلا إلى حيث توجد ردهة واسعة أمامهما ... ولكن صفاء تسمرت فى مكانها لبرهة، عندما وجدت شابا بجوار النافذة ينظر فى اتجاههما وعيناه مفتوحتان ليس فيهما ما يدل على كونهما لاتبصران ... تأملته فى تلك اللحظة وهى ساكنة تماما .. فشريف طويل القامة مع جسد رياضى .. وعيناه واسعتان، وشعره مزيج من لون الفجر _الليل .. بدا هادئا .. أنيقا فى ملبسه .

تقدم عمرو منه وهو يلتفت نحو صفاء قائلا :

- ياشريف .. لقد جاءت حرم المرحوم الشيخ المهدى لتراك بنفسها .. وهى أصرت على ذلك .

تقدم شريف فى اتجاه الصوت ببطء .. ثم قال بهدوء :

- البقية فى حياتك ياهانم .. وأنا فى خدمتك بقدر إمكانياتى وأرجو أن تعتبرينى كأحد أبنائك بالضبط .

وهنا لم يتمالك عمرو نفسه وانطلق ضاحكا بصوت مرتفع فى قهقهة متواصلة مما أثار دهشة شريف الذى بادره بهدوء أيضا :

- ما الذى يضحكك ياعمرو ... أترى أن الوقت مناسب ؟

أجابه وهو يحاول أن يتماسك :

- بالطبع لابد وأن أضحك ... فأنا لأول مرة أرى الابن أكبر من أمه بخمس عشر سنة على الأقل .

- ماذا تقصد ؟

- ياسيد شريف ... صفاء هانم لم تكمل السادسة والعشرين بعد

التفت شريف إلى لاشىء ... ثم قال معتذرا :

- أنا آسف ياهانم ... فى الحقيقة عندما علمت أنك حرم الشيخ الـ ....

قاطعته صفاء ليسمع صوتها لأول مرة ... قائلة :

- لاداعى للأسف ياأستاذ شريف ... المهم أننى أحببت أن أراك وأن أتعرف عليك ... وأسمح لى أن يكون بيننا فيما بعد أحاديث طويلة

- أنا تحت أمرك ياهانم .

قال عمرو ضاحكا :

- أذن أخرج أنا من الموضوع

أجابت صفاء متلطفة :

- لا ... سنخرج أنا وأنت الأن ... فيجب أن أعود للشركة

همس شريف بهدوء أيضا :

ألا تنتظرى ... أقصد ألا تنتظرا قليلا ...

نظرت إليه فى لحظة صمت ... ثم أجابت

- ساعود فيما بعد ... ثق أنى ساعود ... لأننى فى حاجة إليك.

(٣)

جلست صفاء وراء شرفة منزلها وهى شاردة الفكر .. حائرة .. تنظر إلى الأفق تارة ثم إلى أشجار الحدائق المترامية أمامها تارة أخرى، وكأنها تبحث عن الحقيقة بين أحضان الطبيعة وصفحة السماء الصافية . لعلها تجد أجابة لما يدور فى خلدها وما يجيش فى صدرها.

الحيرة تكاد تلقى بها وسط دوامات من الغموض .. فهى لاتعرف ما الذى أصابها بالضبط عندما رأت شريف فريد لأول مرة ولماذا تركته سريعا .. هل هربت ؟ .. ومن أى شيء تهرب ؟ هل شعرت بضآلتها عندما اكتشفت بأنها صغيرة جدا على أن تكون زوجة لرجل فى الثمانين .. هل مستها إهانة منه مباشرة أو عن غير قصد .. أسئلة كثيرة كانت تجول فى خاطرها تبحث عن أجابة .. ولكنها لم تجد، بالرغم من الليالى الطويلة التى عاشتها وهى فى صراع مع نفسها تبحث عن الحقيقة بلا فائدة .

لم تكن صفاء وحدها التى سقطت فى بئر الحيرة .. ولكن كان شريف أيضا قد وجد نفسه فجأة مستسلما لدوامات فكرة وإحساسه بالذنب .. فلم يكن يدرى هو أيضا إن كان قد أهان مشاعرها دون قصد ، أم أنها استهانت به فتركته .. أم أنها لم تستطع مقاومة إحساسها بالإشفاق عليه فآثرت الهروب من أمامه وتركته بلا معين .. كان إحساسه غريبا .. شعر بأنه رآها بالفعل .. وتأكد من ذلك عندما ألح على عمرو فيما بعد بأن يصفها له .. ولم يبخل صديقه

عليه فى مبالغته لوصف جمالها ورقة صفاتها .. رآهـا بقلـب حرمـت الأقدار صاحبه من الإبصار .

لـم تتجـاوز السـاعة الحاديـة عشـرة صباحـا عندمـا دق جـرس الباب عند شريف وهو جالس بمفرده .. فنهض ببطء متجها إلى الباب مباشرة وفتحه وهو يقول :

- لقد تأخرت كثيرا ياعم حسين .

ولكـن ... كـادت الأرض تميـد بـه ، عندمـا فوجـىء بصـوت صفاء قائلة برفق :

- أعدك أننى لن أتأخر ثانية ياأستاذ شريف

وبصعوبة استطاع أن يتماسك وهو يردد :

- صفاء هانم .. أهلا بك .. أنا آسف لقد ظننتك ..

ولم تمنحه فرصه الاسترسال .. قائلة :

- أتسمح لى بالدخول

تراجع إلى الخلف وهو يشير إليها بالدخول .. وعينـاه تكـادا تكونـا فى اتجاهها .. وقال :

- تفضلى ياهانم .. أهلا بك فى كل وقت .

و .. دخلت صفاء وهى تستطلع المكان وكأنها تراه لأول مرة .. أو كأنها تمنح نفسها فرصـة لتـأمل حيـاة ذلـك الرجـل الذى اقتحم حياتها دون أن تدرى .. ودون أن ترغب أيضا .

ثم جلسا فى مواجهة بعضهما .. وبادرته قائلة :

- كيف يتركك عم حسين وحيدا هكذا ؟

ابتسم بهدوء قبل أن يقول :

- لقد اعتدت ياهانم على وحدتى .. ثم .. من حق عم حسين أيضا أن تكون له حياته .

- وأنت ؟

- أنا !

- نعم أنت .. أليس من حقك أن تكون لك حياتك أيضا

ومرة أخرى ترى صفاء ابتسامته المصحوبة بالمرارة وهو يقول :

- القدر حدد لى حياتى .. ولقد ارتضيت بقراره

- ارتضيت به راضيا أم مستسلما ؟

- تقصدين عاجزا !

سارعت معتذرة :

- لا .. لا لم أقصد هذا .. فإنسان مثلك وفى مستواك العلمى والثقافى من المستحيل أن يكون عاجزا ..و..

قاطعها بهدوء شديد :

- ياصفاء هانم .. لا تشغلى نفسك بى .. المهم أنا مستعد الآن لسماعك .. ولتنفيذ كل رغباتك إذا كان فى إمكانى ذلك

صمتت لحظة قبل أن تجيب :

- أنا لم أحضر هنا لكى أطلب منك طلبا .. بل جئت راجية أن تقبل أن تساعدنى .

وقبل أن يتساءل رن جرس الباب من جديد وما كاد يهم بالوقوف حتى سارعت هى بتلقائية وعفوية .. قائلة :

- لا .. انتظر أنت .. أنا سوف أفتح الباب

ردد هامسا :

- مستحيل ..

ولكنها كانت قد أسرعت بالفعل وفتحت الباب لتجد عم حسين الذى بهرته المفاجأة هو الآخر، ودخل صامتا وكأن الأمر عاديا. وعادت صفاء لتجلس أمام شريف مرة أخرى .. وأردفت :

- نعم ياأستاذ شريف .. فأنا بحاجه إليك .. أريد معاونتك فى العمل .. فأنت كما تعلم الشركة كبيرة وفروعها كثيرة .. ولا ولن استطيع بمفردى إدارتها . ولابد من تواجدك بجانبى على الأقل فى هذه الفترة.

و .. شعرت صفاء بدوار خفيف على أثر تساؤلة المفاجىء . وكأنها ضربت على رأسها فجأه .. عندما قال :

- منذ متى ياصفاء هانم وأنت زوجة للشيخ المهدى ؟

تململت قليلا قبل أن تجيبه :

- أنت تهرب من طلبى .. ولكن على كل حال سأجيبك .. تزوجته منذ عشر سنوات تقريبا .

- عشر سنوات .. وهل عمرو كان صادقا عندما أبلغنى بأنك لم تتجاوزى السادسة والعشرين .. أقصد هل تزوجته وأنتِ تدرسين ؟

وبسرعة أجابت !

- نعم .. نعم لقد حصلت على الليسانس وأنا زوجة له .. في الحقيقة لقد كان المهدى بك مستنيرا بالقدر الكافى الذى جعله يحثنى على مواصلة تعليمى .. فحصلت على ليسانس آداب .

بادرها :

- فى أى قسم ؟

- فى .. فى .. أنت تصر على الهروب من طلبى .. ولن أتركك إلا إذا وافقت .

ضحك بصدق وهو يقول :

- أنا لا أهرب ياصفاء هانم .. ولكن .. لست أدرى كيف تكون مساعدتى لك فى إدارة الشركة .. وأنا .

- أنت من اليوم مستشارها المالى والإدارى

قال بسرعة :

- لا .. أفضل أن أكون مستشارك أنت .. وفى حدود طاقتى . وثقى ياهانم أننى سأكون فى خدمتك دائما كلما احتجتى لمشورتى .. فأنا لا أترك المنزل كثيرا .. إلا فى بعض الأحيان التى يصر فيها عمرو لكى أخرج معه .

نهضت فجأة .. شعر بها .. فوقف هو الآخر .. متسائلا بجدية:

- هل أغضبتك ياهانم ؟

أجابت برقة شديدة :

- لا .. بالعكس .. فأنا شعرت بسعادة بالغة من خلال حديثى معك ولكنى كما تعرف دائما مشغولة . ولابد من انصرافى .

- هكذا .. لقد نسيت أيضا أن أعاتب عم حسين لأنه لم يقدم لك شيئا

قالت بلا إرادة :

- هذا أفضل .. لقد منحنا فرصة الحديث المتصل .

- إذن دعينى أوصلك للباب

وسارت بجانبه وهى ترمقه بين اللحظة والآخرى وكأنها تخشى أن يراها .. ثم توقفت لتودعه قائلة :

- لقد كانت المبادرة منى .. فلا تبخل على بسؤالك عنى

سحب يده من كفها برفق وهو يؤكد :

- سأفعل .. سأفعل ياصفاء هانم .

و .. انصرفت .

كاذبة .... هكذا رددت فى نفسها وهى تقود سيارتها متجهة إلى الشركة .. كاذبة . قالتها بتوتر شديد وكأنها تلوم نفسها على ذلك .. كل هذه الأموال .. وكل تلك المسئوليات وبالرغم من سلطان المقعد الذى تجلس عليه .. بالرغم من كل هذا وجدت نفسها تكذب أمامه .. وقالت إنها حاصلة على الليسانس . كذبت وهى لا تعرف لماذا كذبت .. لم تستطع أن تذكر الحقيقة أمامه، وكأنه شىء هام جدا فى حياتها .. أو كل حياتها .

وكان أول قرار تتخذه بثقة عند وصولها إلى مكتبها أن استدعت هيام سالم .. وقالت بحزم :

- اكتبى طلب انتداب للأستاذ عمرو إسماعيل من فرع الاسكندرية إلى هنا .. وأحضريه لكى أوقع عليه .

كانت حاسمة فى طلبها ، وكأنها استمدت شـجاعتها منذ لقائها بشريف .

وبدأت تلك اللحظة، تتوالد بسرعة كبيرة لتنجب دقائق وساعات وليالى طويلة فى نسيج من الود والأحاسيس الصادقة التى تربط بينهـا وبين شريف .

أصبحت تمثـل بالنسبة إليـه الكثير .. شغلت فكـرة قبل وقتـه وتسللت إلى مشاعره وكيانه بهدوء شديد، ولكنه راسخ وعميق، وهـى لاتدرى أنها الأخرى كانت تمنحه حق التغلغل إلى اعماقهـا يومـا بعد يوم .. استطاعت بذكائها الفطـرى .. أو بذكـاء المرأة البريئـة .. أن تسيطر تماما على حياته .. وقد هداها تفكيرهـا بـأن تستعين بجارتها نصف المتعلمة التى تسكن بامبابـة، والتـى علمتهـا فـى السـابق كيـف توقع اسمها فجعلت منها سكرتيرة خاصة لها . ومنذ تلك اللحظـة هدأ بالها وارتاح فكرها، حيث تولـى عمـرو إسـماعيل إدارة الشـركة وقـد منحته كل ثقتها دون أدنى شك فيه .. أو لأنها لا تملك غير ذلك .

أما فاطمة جارتها، فلقد اسـتخدمتها لغرض غير السكرتارية التى تجهلها بطبيعة الحال .. فكانت تستدعيها كل صبـاح إلـى مكتبهـا وتطلـب منهـا قـراءة عنـاوين الصحـف .. وأهـم الأخبــار والأحـداث الجديدة .. ثم تتصل بشـريف وتخبره بهـا حتـى إذا بادرهـا باستفسـار مفاجىء، كانت تضع يدها على طرف السماعة ثم تسأل فاطمة وتعود لتخبره بما يريد . ولهـذا أصبحـت صفـاء تمثـل الكثير بالنسبة لـه .. كانت عينيه التى تريان .. جعلته يعيش الأحداث بأكملها كما كان فـى

السابق .. كما أنها شغلته بكثرة استشاراتها فى العمل ..و.. بدأت مرحلة جديدة فى علاقتها .. حيث تعددت مرات خروجهما .. كانت تصحبه إلى كل مكان فى رحلات متتاليه، وكأنهما يمضيان فتره خطوبتهما .. وفى كل مره كانت تزداد إنبهاراً به .. وبقوة شخصيته. وهو يزداد التصاقا بها وإعجابا يقترب من إحساسه بالحب .

إلى أن جاءت اللحظة التى انفرد به عمرو إسماعيل وهو فى منزله وبادره متسائلا بطريقته المعتادة :

- لن انتظر حتى أكون آخر من يعلم الحقيقة .

- أى حقيقة تقصد !!

- اسمع لا تراوغني .. فأنا أعرف ما بينك وبين صفاء هانم فإذا كنتما تريدان مفاجأتي .. فهذا مقبول .. أما إذا كنتما تخفيان عنى الحقيقة .. فهذا هو الذى لن أقبله أبدا .

انتبه شريف إليه جيدا .. ثم قال :

- ما هذا الهراء .. مادا تقصد بالضبط ؟

- سأدخل فى الموضوع مباشرة .. أنت تحبها أليس كذلك؟

اهتزت أهداب شريف .. قبل أن يقول :

- أنا ..

- نعم أنت .. هل تحبها أم لا ؟

نهض وظل ساكنا فى مكانه .. ثم أجاب :

- من أين لى هذا الحق ياعمرو .. أنت نسيت .. أم أنك تتناسى ظروفى .. صفاء هانم إنسانة رقيقة القلب وكل ما فى الأمر أنها

تحاول مساعدتى لتخلصنى من وحدتى القاتلة .. وهذا ليس معناه أن أتجاوز حدود المنطق وأن أسمح لنفسى بأن .. بأن أحبها .. ولو فى صمت .

نهض هو الآخر وهو يقول :

- وإذا كانت هى تحبك ..و..

قاطعه بلهفة كبيرة :

- هل قالت لك ذلك ؟

صمت عمرو برهة قبل ان يجيبه بنبرة متخاذلة :

- لا .. ليس بالضبط .. ولكن أنا لدى حاسة خطيرة أستطيع من خلالها كشف الحقائق المتوارية .. وكل شىء أمامى يدعونى أن أؤكد لك انها أيضا تحبك

سار بضعة خطوات .. وقال كأنه يحدث نفسه :

- أنت ترى بعينيك .. وبالرغم من ذلك فأنت لست متأكدا .. فماذا أفعل أنا ؟

اقترب منه قائلا بجدية :

- أنت تشعر بها أكثر منى .. ياشريف لا تجعل ظروفك تحول دونك وأحلى لحظات عمرك .. وصدقنى أنا لدى إحساس كبير بأن صفاء هانم تحبك

وعلى غير المتوقع التفت شريف فى اتجاهه وقال بحزم :

- أرجوك .. لاتحاول أن تثيرهذا الموضوع معى مرة ثانية .

- على كل حال أنا لم أحضر إليك لأتحدث معك في هذا الموضوع .. ولكني جئت بخصوص شيء آخر كلفت به لأبلغه لك

- ما هو ؟

ازداد اقترابا منه .. ثم وضع يده فوق كتفه برفق قائلا :

- ياشريف .. يجب أن تجرى العملية في عينيك .

اهتزت رأسه قليلا وهو يتساءل :

- كيف .. ومن أين ؟

- لقد أبلغتني صفاء هانم .. بأن الشيخ المهدى كان قد خصص لك مبلغ العملية قبل وفاته مباشرة .. وهي لاتعرف كيف تخبرك بهذا ..و..

أزاح يده بقوة ثم قال متوترا :

- لا .. لن أقبل هذا .. ولن نجعل مشاعري في مجال المساومة حتى ولو ظللت بقية حياتي كفيفا .

- لا تأخذ الأمور بهذا المنظار ..و..

ولكنه يقاطعه بعنف !

- من فضلك اتركني وحدي .. اتركني وحدي

تحرك عمرو متخذا طريقه للخارج .. بينما ظل شريف ساكنا إلى أن سمع صوت الباب وهو يغلق فتلمس الطريق إلى أقرب مقعد .. وجلس فوقه وكأنه يتهاوى من فوق قمة جبل شاهق .

(٤)

لم تكن تعلم أن الليل ممكن أن يكون بلا قمر .. وبأن السماء قد تشعر بها وكأنها صرح من الصلب يحول دون وصول الهواء إلى رئتيها .. لم تكن تتصور أن للفجر دموع كالجمرات تتساقط فوق كيانها لتتقوقع فى أعماقها .. لم تكن تدرى أن كل أنغام الدنيا وأصواتها تتحول فجأه إلى طرقات مدوية تصم الإذن وتثير الفزع .. لم تكن تعلم ان للأحاسيس كل هذه السطوة وكل هذه القدرة منذ أن فوجئت باختفاء شريف فريد .

بحثت صفاء عنه فى كل مكان .. لم تجد أحدا فى منزله .. ذهبت إلى الأماكن التى كانت ترتادها معه .. سألت عنه أغلب معارفه .. بل كلهم .. فلم تجد أجابة تهدىء من روعها .. طحنتها الحيرة .

شعرت بإنها السبب، بعدما علمت من عمرو إسماعيل

ما دار بينه وبين شريف فى لقائهما الأخير .

ما هذا .. ترانى أحبه حقا ؟

تساءلت فى صمت وهى جالسة وراء مكتبها .

يا إلهى .. أيمكن أن يكون الحب بهذه القوة .

لقد عشت طوال حياتى محرومة من هذا الإحساس

ولكنى لم أشقى .. لم اتعذب كما أتعذب الآن

هل حقا الحب عذاب .. أم نقاء ورضى وهدوء

وكيف أحبه .؟ أين أنا منه .. هو العالم المفكر فى نظرى .. بل فى نظر الجميع .. أين أنا منه . وهو على تلك الدرجة من العلم والثقافة .. كيف وقعت فى هذه الهوة الساحقة .. بل كيف أوقعت نفسى .

هل من حقى أن أحبه ؟ .. هل من حقى أن أحب . لست أدرى .. وكأن القدر لا يزال يضمر لى الكثير من الغموض .. وكأن ليالى العذاب لا زالت على إصرارها لأن تشقينى .. وكأنى أنا قربانا يقدمه كل المعذبون فى الأرض لكى يتخلصوا من مأساتهم .

بدت صفاء عصبية ومتوترة إلى أقصى حد من الأنفعال والاضطراب .. تكاد تكون قد انسلخت من نفسها الهادئة وأصبحت دائمة الثورة والهياج .. وذلك أفسح الطريق أمام من يتربص لها كالأفعى لتبث سمومها بحذر شديد .

أفسح الطريق أمام هيام سانم لتتصيد لها الأخطاء دون أن تدرى .

وجاءت الفرصة مواتية تماما عندما خرجت فاطمة من مكتب صفاء وهى تكظم غيظها وحقدها من سوء معاملة صفاء لها .

فتلقفتها هيام ببراعة شديدة وسحبتها إلى مكتبها كما تسحب الأفعى فريستها .. وقالت :

– فى الحقيقة أنا مندهشة جدا .. لطريقة تعاملها معك هذه الأيام .

فكان صمت فاطمة مشجعا لها لأن تسترسل قائلة :

– كنت أتصور إنها صديقتك .

وبانفعال واضح أجابت :

- أنا أيضا كنت أتصور هذا .. ولكن .. ولكن يبدو أن المال والمظاهر يجعلا الإنسان يتناسى ماذا كان فى أول الأمر .

اقتربت منها وكأنها تزحف .. ثم تساءلت بهدوء :

- تتناسى ماذا .. أخبريني يا آنسه فاطمة .. فأنا حائرة فى أمرها .. إنها أصبحت سليطة وتكاد تحتقر الجميع وأنت بالذات .

زادت من ثورتها وهى تردد :

- أنا .. بل أنا التى يجب أن أحتقرها .. أنا الوحيدة التى تعرف ماضيها .. تعرف كل شىء عنها .

قالت الأخرى بدهاء :

- كثيرات ينسين ماضيهن .. ولكن لم أكن أتصور أنها تفعل معك هذا .. بالرغم من أنك على ما يبدو تعرفين عنها الكثير .

أطلقت زفرة من صدرها وهى تجيب :

- نعم .. أعرف عنها الكثير .. وقد تفزعين لو علمتى الحقيقة مثلى .. فأنا .

قاطعتها وكأن الأمر لايعنيها :

- فى الحقيقة منذ أن رأيتك أول مرة وأنا أشعر بأنك قريبه منى جدا .. وأتمنى أن تكونى صديقتى .. وأنا أيضا عندى الكثير أريد أن أحدثك بشأنه .

- خاص بصفاء أيضا .

- لا .. خاص بى أنا .. فلطالما تمنيت أن تكون لى صديقه أستطيع أن أبوح لها بأسرارى الخاصة .. ولكن فشلت أن أجد واحدة فقط تفهمنى .. إلى أن ظهرتى أنت وشعرت بأننا سنصبح أعز الأصدقاء.

هدأت قليلا قبل أن تقول :

- لقد أرحتى بالى .. فأنا كدت اختنق غيظا .. لأننى أيضا لم أجد إنسانة أثق فيها وأبوح لها بحقائق كثيرة .

- أذن فنحن متفقتين .. وستثبت لك الأيام أننى خير صديقه لك.

قالت بتحدى :

- هل تعلمى أن صفاء هانم .. مجرد خادمة ..و..

- ماذا قلت ؟

- نعم خادمة .. وتجهل أيضا القراءة والكتابة

أخذتها المفاجأة وهى تتساءل :

- ماذا تقولين ؟

- إننى أقول الحقيقة .. صفاء مجرد خادمة .. وأنا التى علمتها كيف تكتب اسمها ..و..

قاطعتها بلهفة مثيرة :

- هل أنت متأكدة .. ماذا تقولين .. بل قولى كل ما عندك

- نعم سأقول .

وقالت كل ما عندها !!

أخبرتها بكل ما تعرفه عن صفاء .. عن قصة الأسرة الفقيرة ، كثيرة العدد .. التى أثقلت عليها مسئوليات الحياة والديون . فاضطرت أن ترسل ابنتها لتعمل خادمة وهى لم تتجاوز العاشرة من عمرها .. أخبرتها بقصة عودتها مرة أخرى للمنزل لأنها أصبحت خطر على أفراد الأسرة .. لأنها فتاة لعوب . أخبرتها كيف كانت صفاء محرومة من أبسط الاشياء .. بل من كل شيء

وكيف أستطاع أخيها أن يقايض بها مقابل استمراره فى العمل ..و.. أخبرتها بإضافات كثيرة أغلبها بعيدا عن الحقيقة .

كانت هيام سالم تستمع إليها فى ذهول .. لا تحاول أن تقاطعها حتى تستخلص كل ما عندها، وتغذى به شرايين الحقد المتعطشة للخراب والدمار ..و..

أجابتها بهدوء شديد :

- هل تعدينى يافاطمة أن يكون الأمر سرا بيننا .. حتى أستطيع أن أتدبر أمرى معها .

- أعدك .

وتمت المعاهدة بين الأفعى والحقود فى اتفاقية ظالمة لم يشهد عليها إلا الشيطان .

مسكينة صفاء ..

لم تكن تعلم ما يحيك لها الحقد فى الظلام .. كانت مشغولة بانفعالاتها الخاصة .. شخصيتها المركبة جعلت منها إنسانه غامضة حتى على نفسها .. إحساسها بالضعف جعلها تهاجم أكثر من أن

تفهم.. تتعامل مع الآخرين بحرص أقرب إلى التربص .. أصبح كل شيء أمامها وكأنه وحش كاسر يريد افتراسها .. إحساسها بالاضطهاد تملك منها تماما .. باتت كالنمرة الذبيحة التى ترغب فى الآنتقام من الآخرين .. حتى من أقرب الناس إليها .. لأنها تتصور أن المجتمع بأكمله قد شارك فى ذبح أنوثتها . أرادت أن تثبت أن لها كياناً، بعد أن ذاقت مرارة المزلة فى صغرها .. أبواها لم يشعراها بأهميتها عندما تركاها تعمل خادمة مقابل بضعة جنيهات قليلة ، ثم توليا بيعها لأحد الأثرياء الذى كان يتركها كثيرا وحيدة ، ولايعاشرها كزوج ، وإن فعل . فكان يدمر كرامتها ويهين أنوثتها قبل كيانها بلا رحمة .

وجدت نفسها فجأه تجلس فوق عرش القوة وهى أضعف ما تكون .. سمعت الكثير من كلمات الإغراء وهى لاتفهم أغلبها .. تعددت أمامها ارقام الألوف من الجنيهات وهى لازالت تشعر بعقدة الفقر .. ولهذا كانت تحاول أن تهاجم باستمرار كل من يقترب منها خوفا من أن يكتشف حقيقتها الهشة .. كانت تحاول أن تدعى فهم كل الأمور ولا تعطى فرصة للحوار خوفا من أن يفتضح أمرها .. لاتحب الأقوياء أو الأثرياء بقدر تعاطفها مع الضعفاء .. كانت تشعر بالآنتماء إليهم .. ولهذا أحبت شريف فريد وهى لاتعلم إن كانت تحبه لشخصه أم لعجزه .

ولكنها فى الحالتين أحبته دون إرادتها ولهذا لم تتردد لحظة عندما علمت بوصول شريف إلى منزله فى أن تسرع إليه بكل لهفة الشوق ونبض الحرمان ..و..

وجلست أمامه صامتة لعدة لحظات تتأمله ثم قالت بهدوء :

- شعرت بالقلق عليك كثيرا عندما طال غيابك .

أجاب وهو يشيح بوجهه فى اتجاه آخر وكأنه يرى ويريد أن يبعد نظره عنها حتى لا تفضحه عيناه :

- كنت فى حاجة لتلك الرحلة .

- هل من حقى أن أعلم أين كنت ؟

- كنت فى كل مكان أشعر فيه براحتى .

- لهذه الدرجة نحن هنا نسبب لك الضيق ..و..

قاطعها بتلطف :

- لا.. لم أقصد هذا .. أنت .. أقصد أنتم أقرب الناس إلى نفسي فكيف أشعر بالضيق لتواجدكم بقربى .. ولكنى أفضل ألا أشرك أحداً فى أحزانى

- أنت هكذا تطلب منى ألا أستعين بك فى حل مشاكلى .

- أبدا .. أنت تشعريني بالسعادة كلما لجأتى إلى .. على الأقل فأنت تمنحينى قدر من الأهمية .

- أنا فى حاجة إليك حقا ..و..

وفاجأها قائلا :

- ياليتك تحدثيني عن نفسك ياصفاء هانم .. تصورى أننى لا أعرف عنك شيئا .. غير كونك زوجة المرحوم الشيخ المهدى

سرت قشعريرة فى جسدها من سؤاله المباغت .. ولكنها تمالكت سريعا قبل أن تقول :

- إنسانة عادية جدا .. تخرجت من الجامعة .. وتزوجت صغيرة .. وعشت مدللة وسط أهلى غير محرومة من شيء عرفت الدنيا على حقيقتها بالرغم من صغر سنى .. ولا شيء آخر

تردد لحظة قبل أن يتساءل :

- فى الحقيقة هناك سؤال يحيرنى .. ولطالما حاولت أن أجد له إجابة فلم أجد .. ولكنى أخشى أن ..

- اسأل كما شئت فأنت عندى كما تعلم لك قدر خاص .

- كنت أتساءل ما الذى يجعل فتاة جميلة .. متعلمة مثقفة مثلك أن تقبل الزواج من رجل فى عمر جدها .

أطلقت زفرة طويلة من صدرها .. وراودتها رغبة شديده فى أن تبوح له بكل شيء فى تلك اللحظة .. ولكنها تراجعت لخوفها من أن تفقده ..و.. أجابت :

- لست أدرى .. قد يكون بسبب رغبتى فى الارتباط من رجل ناضج يستطيع أن يتعامل مع مستوى تفكيرى .. وقد يكون بسبب رغبتى فى اكتشاف حياة جديدة .. كما أن المهدى بك كان لطيفا ويحسن معاملتى .. المهم أن السبب لم يكن سعيا وراء المال إذا كنت تظن هذا .

- أبدا لم أظن هذا مطلقا .. ولكنه مجرد تساؤل .. حاولت أن أجد له إجابة لديك .

- وهل وجدت ؟

- نعم .. فأنت حقا على درجة كبيرة من الثقافة .. ولك من الطموحات ما يجعلك جديرة لما أنت فيه الآن ..و..

قاطعته مرة أخرى :

- ولكنى ينقصنى الكثير الذى لم أجده

- ماذا ينقصك .. فأنا أعلم حسب وصف الآخرين لك بأنك فى غاية الجمال .. كما أنك ثرية ومتعلمة وشابة فماذا ينقصك ؟

- ينقصنى الأمان ...و... والحب .

- كيف تبحثين عن الأمان ... وكل الناس تتمنى رضاك .. أما عن الحب فهو أحد عطايا القدر .. نحن لانملك إلا الآنتظار .

حاولت أن تقترب منه وهى تقول :

- ولكنى وجدت الحب فعلا .. فأنا .

ودون أن يدرى نهض فجاه، كأنه تذكر شيئا هاما أو أنه يهرب من مواجهة موقف ما لايقوى على التصدى له .. ونهضت هى متسائلة !

- لماذا وقفت .. هل مللت حديثى .

- بالعكس .. ولكنى كنت سأبحث عن عم حسين لكى يقدم لك شيئا .

ازدادت اقترابا منه وهى تتأمله بحب !

- أنت تحاول أن تهرب منى .

- أنا !!

- لماذا تحاول إخفاء حقيقة مشاعرك عنى .

قال بهدوء شديد :

- ياصفاء هانم .. أنا .. أنا ..

- لاتقل شيئا .. بل دعنى أسبقك أنا .. وأقول لك إنى أحبك .. نعم ياشريف أنا أحبك ولا أستطيع البعاد عنك

اهتزت يداه عندما تناولتها بين كفيها .. ثم قال والاضطراب يملأ كيانه :

- ياصفاء هانم .. إذا كنت تقولين هذا لكى أقبل عرضك الذى أرسلتيه مع عمرو فأرجوك أن توفرى مشاعرك الطيبة .. لأنى لن اقبل أن أكون ...

قاطعته بحماس :

- أقسم لك بأن حبى صادق وليس له دخل بحديثى عن العملية .. وإذا أردت أن نتزوج الآن فأنا موافقة .

- ولكن كيف تربطين مصيرك بإنسان عاجز عن إسعادك فأنا..

- لاتقل شيئا .. إلا إذا كنت أنت لاتشعر نحوى بأى إحساس

أجاب بلا تردد :

- لا .. أنا أحبك أكثر مما تتصورين .. أحبك أحبك ..و..

التقت شفتيهما فى قبلة طويلة .. قالا فيها ما كان يدخره كل منهما من مشاعر للآخر .

(٥)

ذاب جبل الجليد .. وانهمـرت أمطــار الظنــون والشـكوك ، تهامست الكلمات بأن شريف وصفاء فـى طريقهمـا لـلزواج ، الجميـع فى حيرة .. ما بين حاقد وحاسد .. سعيد ومتأمل . الجميع فى دهشـة .. كيف سيتم ذلك ؟

ولكن الحب الذى جمع بين قلبيهما كان أقوى من الـهمسـات .. وأقوى من التساؤلات الحائرة .

الحب جعلهما يقبرا كل الغموض فى صدرهمــا .. هـى تحـاول أن تبسط الأمور وتلتمس لنفسها ألف عذر وعـذر فـى إمكانيـة التسـتر على جهلها إلى الأبد .. وهو يجاهد فـى سبيل الهـروب مـن إحسـاس الخوف الذى يملأ وجدانه .

كـان يشـعر بغموضـهـا مـن كـثرة حالاتهـا المتناقضـة .. فهـــى سعيدة ومتمردة .. حزينة ومتفائلة .. ثرثارة بلا معرفة .. أحيانا كــان يشعر بها فى منتهى القوة والغطرسـة وأحيانـا آخـرى يجدهـا أضعـف مخلوقة على سطح الأرض .

كل هذا دفعه أن يوجه سؤاله إلى عمرو إسماعيل بحزم قاطع:

- أخبرنى ياعمرو .. ماذا تعرف عن صفاء ؟ !

ومن خلال المفاجأة أجابه قائلا :

- هى امرأة .

- أنا أعلم أنها امرأة .. ولكن أريد أن أعرف عنها كل شىء

اقترب منه قبل أن يقول :

- إنها إنسانة رقيقة .. يبدو أنها مرت بظروف صعبة في حياتها .. جعلتها مترددة تارة .. وحازمة تارة آخرى .

قال بلهفة :

- أخلاقها .. طباعها .. تصرفاتها معكم .. أريد أن أعرف ما هى .. ما هى ..و..

نهض فجأة وهو لا يدرى بأن رأسه كانت فى مستوى أسفل ضلفة النافذة، فارتطم بها بقوة عنيفة مما أفقده اتزانه ، فترنخ ليسقط على حافة المائدة الحديدية، لتجعله يفقد وعيه تماما من شدة الاصطدام.

وهنا هرع إليه عمرو وهو مذهول .. فكل شيء تم فى لحظة واحدة .

أفزعه منظر الدماء التى تسيل من رأسه بغزارة .. وراح يصرخ مستدعيا عم حسين الذى حضر بدوره وهو يصرخ مستفسرا عن حالة مخدومه .

ومضت الدقائق متوترة إلى أن وصلت به سيارة الإسعاف إلى المستشفى .. وهناك التف حوله الاطباء الذين قرروا بالإجماع على وجوب إجراء عملية عاجلة .. وتلقت صفاء تلك الأنباء وهى فى حالة هيستيرية . وطلبت من عمرو الاتصال فورا بالطبيب الشهير الذى سيقوم بإجراء العملية ..و.. دفعت العشرين ألف دولار .. وذلك بخلاف المصاريف الآخرى ولم يبق سوى الانتظار لنتيجة العملية .

وكأنه انتظار للحظة تنفيذ حكم الإعدام .. انتظار الأسير الذى يترقب حكم أعدائه .. انتظار خروج طفل للحياة .. انتظار عودة حبيب مهاجر . تلك هى أحاسيس صفاء فى تلك اللحظة .. بل وفى الأيام التى تلت إجراء العملية ..و..

وقف الجميع حول الطبيب وهو يرفع الضمادات من فوق عنيى شريف .. فى لحظة خشوع وترقب .. وانتهى الطبيب من عمله ومعها انتهت حياة الظلام فى دنيا شريف فريد الذى أدار بعينيه يستطلع وجوههم فى صمت رهيب .. وما أن وصلت نظرته إلى وجه صفاء ، حتى همس بضعف شديد قائلا :

- أنت .

أجابت والدموع تتسابق من بين جفنيها :

- نعم أنا .. أنا ياشريف

فأغمض جفنيه بهدوء وكأنه لايريد أن يرى أحدا بعدها .. يريد أن يملأ رئتيه من أنفاسها .. وأن يطبع صورتها فى وجدانه .. كأنه يريد أشياء كثيرة .. لولا أن فاجأهم الطبيب قائلا بحزم :

- أهنئكم على نجاح العملية .. ولكن من فضلكم لا أريد أحد فى هذه الغرفة وذلك لضمان سلامة العملية .

وبدأ الواحد تلو الآخر فى الانصراف .. بينما ظل شريف مغمضا عينيه وهو فى رحلته مع الأحلام

كانت سعادة صفاء تفوق كل تصور .. شعرت بأن الدنيا كلها تبتهج لتلك المناسبة .. بأن القدر قد أفرج عن مشاعر الفرحة فى

صدرها .. فشريف بالنسبة إليها كان أملا وملاذا وجدت فيه الدرع الذى سيقيها هجمات الغدر أو لطمات الظروف .. وجدت عنده الحنان الصادق المجرد من كل الأغراض الدنيوية ولهذا أحبته بعمق، واستجابت لإحساسها نحوه بصدق .

وفى غمرة فرحتها لم تكن لديها فرصة الإنتباه للعيون المتربصة لإيذائها ولا للشرور التى بدأت تنمو تحت قدميها وكأنها حشائش شيطانية راحت تضرب جذورها حولها، وهى تتحين الفرصة للالتفاف حول عنقها حتى لا تقم لها بعد ذلك قائمة وانعقد مؤتمر الشر متمثلا فى هيام سالم وفاطمة واتفقتا على تنفيذ خطتهما الدنيئة، بحيث تستغل فاطمة ثقة صفاء الكبيرة وكذلك جهلها .. بأن تجعلها توقع على أوراق متعددة وتنازلات حاسمة لصالح هيام .. تربص الحقد للحب وتسلل الغدر إلى الأمان ..و.. نجحت الخطة .

ولم يكن هناك شيء يعكر صفو سعادة صفاء غير قلقها من موقف شريف إذا علم بأنها تكفلت بمصاريف العملية، فهى تعلم قدر اعتزازه بنفسه وبكرامته ، مما دفعها لأن تنفرد بعمرو متسائلة :

– ألم تسمع أخبارا عن شريف ؟!

قال مبتسما :

– يهمنى أن أسمع أخبارك أنت .

– ماذا تقصد .. فأنا ..

ولكنه يقاطعها بلطف قائلا :

– قلقة ومنفعلة .. وكأنك تخشين شيئا .

أجابت وهى تلتفت إلى لا شىء :

- نعم .. لن أخفى عنك خوفى .. فأنا أخشى رد فعل شريف ولولا أن الحادثة كانت صدفة .. لظن أننى دبرتها له .

ضحك قبل أن يقول :

- أمرك غريب حقا .. كيف تقدمين الحب وكأنه إحساس شرير .. تنفثين الوفاء وكأنه سم .. يجب أن تعلمى أنك أصبحتى فى مكانة أعظم بكثير لدى شريف وأمامنا جميعا .. مثلك ياصفاء هانم يستحق أن يكون رمزا للوفاء والصدق .

لم يكن عمرو مجاملا أو مبالغا فى رأيه عن صفاء .. فهو لا يقول غير الصدق بل لا يقول إلا ما سمعه من شريف أكثر من مرة اثناء زياراته المتكررة له .. كما أن شريف لم يكف عن سؤاله عنها وعن سبب انقطاعها عن زيارته . حاول الاتصال بها تليفونيا أكثر من مرة ولكنها كانت تدعى عدم تواجدها خوفا من لحظة المواجهة .. ومضت أسابيع النقاهة فى منزله وهو خاضع للهواجس المخيفة حتى خيل له بأن صفاء قد أقدمت على ذلك من باب الشفقة أو مسئوليتها كصاحبة شركة .. كان يخشى أن يكون إحساسها مجرد نزوة فرضتها الظروف التى كان يعيش فيها .

ولم تكن صفاء أحسن حالا منه .. فهى أيضا كانت تعيش وسط دوامات القلق .. تخشى أن تتبدل صورتها أمام نظرته الجديدة للحياة .. كانت تخشى أن ينكشف أمر جهلها وخداعها له .. ولكنها تحبه بقوة .. والحب لديه قدرة خارقة لخلق واقع غير الواقع .. الحب لا يرى إلا بعينيه فقط .. لا يرى إلا الأشياء التى يريدها فى محبوبه

.. الحب هو الأحاسيس المتناقضة ، ينبض بالعطاء ويتنفس بالآنانية .. يهيم بالأمان ويحيا بالقلق .. الحب لا يعرف المستحيل ..و.. لكن إذا ما واجه ذلك المستحيل فيكون له شأن آخر !

دق رنين باب شقتها ، وفوجئت بعمرو إسماعيل يقف أمامها متأدبا فى كلماته :

– هل تسمحين لى بالدخول

أجابت بسرعة :

– بالطبع تفضل .

واستدارت فى اتجاه البهو .. ولكنها توقفت والتفتت إليه عندما لاحظته لايزال ساكنا فى مكانه .. فأعادت قائلة :

– تفضل يا أستاذ عمرو

قال مداعبا :

– لن أكون بمفردى ..و..

هنا ظهر شريف أمامها وهو يحمل فوق شفتيه ابتسامة هادئة .. شعرت بالأرض تميد تحت قدميها ، وكل قطرة دماء تنتفض فى عروقها .. ها هو شريف جاء يسعى إليها محبا وليس غاضبا .. جاء يشهر ابتسامته بدلا من استيائه ... ومضت لحظات وكأنها دهر من الزمان .. وقف يتأملها بعطف كبير .. رآها ملاكا أسقطته السماء ليبارك حبه، رأى فى عينيها صحوة الربيع وشروق الشمس .. رآها إطلالة القمر ..و..

تدخل عمرو قائلا :

- لا أود أن أكون عذولا .. أراكما فيما بعد

وانصرف ..

ومرة آخرى وجها لوجه ، بين شريف وصفاء التى قالت وكأنها تهمس :

- حمدا لله على سلامتك ..

وتقدم شريف فى اتجاهها .. ثم تناول كفها بحب كبير وهو يقول :

- كما تخيلتك تماما .. لم تختلف صورتك فى وجدانى أو أمام عينى.

سحبت يدها برفق وهى تشير إليه بالجلوس .. وجلست بالقرب منه وهى تنظر إليه بحنان وتستطلع وجهه .. تتأمله وكأنها نسيت أنه أصبح الآن يراها ويرى هيامها به .. ثم أفاقت على صوته وهو يقول:

- لا أعرف كيف أشكرك .. ليس من أجل تحملك أعباء مصاريف العملية .. ولكن من أجل أنك منحتنى فرصة لكى أراك .

اهتزت أهدابها قبل أن تقول :

- أنا أسعد إنسانة فى هذه الدنيا .

- من أجل نجاح العملية ؟

أجابت بسرعة :

- لا .. ولكن .. من أجل أنك أتيت .

قال بهدوء :

- لم يكن لى الاختيار فى ذلك .. إحساسى نحوك هو الذى دفعنى لأن أحضر .. ولكنى خائف من ..

لاحقته بلهفة :

- من ماذا .. ألم تكن نسبة نجاح العملية مائة فى المائة

نهض وهو مبتسما :

- لا أقصد ذلك .. أنا خائف من إحساسك نحوى بعد العمليه .

- إحساسى نحوك لايتغير بتغير الظروف .

التفت نحوها قائلا :

- أنت لا تعرفين كل شىء عنى

وقفت مهتزة :

- وأنت أيضا لاتعرف كل شىء عنى .

اقترب منها وهو يقول :

- لكننا نعرف شيئا واحدا بيننا .

تساءلت بترقب :

- ما هو ؟

تلمس أناملها بأطراف أصابعه .. ثم همس :

- الحب .

قالت بفرحة :

- وأنا متأكدة أنه يكفى .

- إذن أنت موافقة .

أجابت مدعية عدم الفهم .

- على أى شيء !

- قال باقتضاب :

- نتزوج .

وهنا ألقت بنفسها إلى صدره .. والتفت ذراعاه حولها وهو ينصت إليها مرددة :

- نعم ياحبى الأول والأخير .. نعم نتزوج .

و.. اكتملت سعادة صفاء بذلك الحب الجارف الذى جاهد شريف بصدق من أجل أن يحيطه بها .. كان يستغل كل لحظة من حياته معها لكى يعبر لها عن شكره وحبه وشوقه إليها .. أحب فيها وفاءها وإخلاصها .. أحب الحب من خلالها .. كان يغمض عينيه على صورتها ويستيقظ على صوتها .. بدا هائما بها ، لايرى إلا بعينيها ولا يسمع الا نبضات قلبها ولا يتحدث إلا إليها .. كانت عالمه الوحيد .. ولما لا !!

وهى قد منحته حبها طواعية .. لم تكن تسعى إلى الثراء أو الجاه .. كان الحب هو الهدف .. لم تكن ترغب فى المزيد من المكانة الاجتماعية ولكن الحنان هو مطمعها الوحيد .. لم تكن تريد شيئا

غيره .. هو فقط كإنسان مجرد من كل غاية أو غرض .. أحبته قبل أن يراها وازداد حبها له بعد أن رأت فى عينيه معانى الصدق والامتنان .. أحست بأنها قد وصلت لتوها إلى بر الأمان .. الأمان الذى افتقدته طوال سنين حياتها ، شعرت بقدر أنوثتها واحترامها .. واستمتعت بنبض الحنان والمودة .. انتهى الخوف من حياتها .. كان صدره هو المأوى، وحديثه أحلى النغم وأنفاسه دفء الحياة نفسها ، ولكن .. الحياة ليست حبا فقط .

وكأنها لاتدرى أن للحياة وجوه كثيرة غير وجه الحب .. لم تكن تدرى أن للحياة جوانب اجتماعية وثقافية ونفسية وغيرها من الجوانب المتعددة .. وكأنها اكتشفت فجأة أنها ليست وحيدة فى عالمه .. بل هناك عالم آخر اقتحم حياتها بلا تردد .. وجدت نفسها مرة واحدة متواجدة وسط متغيرات اجتماعية بلا أية أسلحة لديها لتواجهها .. كثرة الاصدقاء .. واختلاف المناقشات والمواضيع .. وتباين وجهات النظر فى مختلف ساعات السمر مع الجميع .. بالرغم أن شريف كان يتعامل معها بتلقائية شديدة، بل كان فى بادىء الأمر فخورا بها منبهرا بجمالها ، سعيدا بتولجدها بجواره بينهم .. وهو لايعلم أنها تعانى أقسى العذاب كلما تعرضت لموقف قد يبدو بالنسبة إليه عاديا .. فكثيرا ما كانت تجد نفسها مضطرة للدخول فى مناقشة مع إحدى زوجات أصدقائه من دكاترة الجامعة فيبدو الحديث مبتورا أو مهزوزا، مما يدفعها للمراوغة أو الابتعاد بحجة الإشراف على ضيافتهم ، إلى أن جاءت اللحظة التى تفجر فيها الموقف بلا مقدمات عندما انصرف الأصدقاء ذات ليلة .. فهمس شريف إليها وهو مبتسما:

– ما الذى يشغلك يا حبيبتى .. أراك لا تشتركين فى أحاديثنا .

أجابت بلا اكتراث :

– أغلبها أحاديث تافهة .

وبدون قصد قال معلقا :

– هل معقول أن يكون الحديث عن الفكر أو السياسة تافها فى نظرك

– لا أجد متعة فى الحديث عن الفكر والسياسة .

لاحقها :

– إذن تحدثى عن الفن عن العلم ..أو..

قاطعتة بحدة :

– أنا حرة أتحدث فى الموضوع الذى أريده .

– لم أر لك موضوعا محببا يمكن مشاركتك فى الحديث عنه

قالت وهى تكتم ثورتها :

– لأنك مشغولاً بتعاليك على الآخرين .. دائما تثرثر فى أشياء لا أهمية لها .. وكأنك الوحيد الذى حصلت على الدكتوراه.

التفت إليها مذعورا :

– ماذا قلت ؟ أنا أتعالى على الآخرين .. هل هذا رأيك فى .

لم تعره اهتماما وهى تواصل :

- أنا أفهم أكثر منك ومن الآخرين .. ولكنك تحاول أن تحط من قدرى أمامهم .

- ما الذى فعلته لكى أغضبك هكذا ؟

أجابت وكأنها تحدث نفسها :

- بصراحة أنا لا أقبل تواجدهم عندنا

- ولكنهم أصدقائى

سارعت قائلة :

- أصدقاؤك يمكنك أن تراهم خارج منزلى .

- ولكن هذا من حقى .

- ومن حقى أنا أيضا أن أعلن عن رغبتى .

اقترب منها فى محاولة لعبور التوتر .. ثم همس :

- ماذا بك ياحبيبتى .. أراك تبدلت كثيرا .. حتى أنك أصبحت لاتقرأين لى الصحف كسابق عهدك . لقد تعودت عليك وكنت أتمنى ، أن ..

قاطعته . بجفاء :

- أنا لست سكرتيرتك .. لقد أصبحت ترى الآن ويمكنك أن تقرأ وحدك .

- ولكنى كنت أعتبر هذا حبا منك لى ..و..

همهمت قائلة :

- ما شأن الحب فى تلك الأحاديث الغبية !

- أرجوك .. لا تحاولى أن تنقصى من قدرى وقدر أصدقائى فهم جميعا من المثقفين والمتعلمين .. فلا تنظرى إليهم بتلك النظرة الجاهلة .

وهنا انفطر ستار الغموض .. وصاحت قائلة :

- أنا جاهلة نعم .. ولكنى صاحبة أكبر الشركات .. أنا جاهلة نعم ولكنى أملك مالم تستطع أنت أن تملك شيئا منه، بالرغم من الدكتوراه التى تزهو بها .. أنا جاهلة نعم .. ولكنى فعلت معك مالم يستطع أحد غيرى أن يفعله لك .

ألجمته المفاجأة للحظات .. ثم ردد قائلا :

- أنا لم أقصد أنك جاهلة .. ولكنى .

أسرعت تقول بتحد :

- لا .. أنا جاهلة بالفعل وهذا ما حاولت أن أخفيه عنك .. أما الآن فماذا تريد .. تلك هى أنا .. رغبت أم لم ترغب فلا داعى للمظاهر الكاذبة ..و..

قاطعها هذه المرة وهو فى ذهول :

- من فضلك ياصفاء .. أنا لا أحب الدخول فى تلك المهاترات معك .. فلنتوقف الآن عن الحديث .

و .. توقف بالفعل الحوار بينهما .. وطال التوقف .

وبهدوء شديد استطاع شريف أن يستعيد مكانته فى الجامعة

كأستاذ غير متفرغ، وابتعد تماما عن أمور الشركة .. بينما راحت صفاء تبحث عن أية وسيلة تشغلها عن مواجهته أو التورط معه فى حديث جاد .. واستمرت الأيام وهى فى حضن الصمت . وأصبح كل منهما فى واد بالرغم من اجتماعهما فى مكان واحد .. لاشىء يجمع بينهما إلا الفراش .. والفراش فقط .. وإن كانت قد نجحت هى فى استثمار أنوثتها كامرأة معه وأخذت تغدق عليه بكل ألوان المتعة الجسدية، وهو يتعايش معها كما تريد هى فى هذا الشأن فقط .. ولكن .. ظل الصمت يحيط بهما .. الحوار قاصر على أمور أكثر تفاهة، وكأنهما روحان قد خلقا للالتقاء الحسى فقط .. بلا أهداف مشتركة أو طموحات موحدة . هو فى عالم وهى فى عالم .. والحب حائر بينهما !!

وبالرغم من ذلك لم يكن شريف يشعر بالضيق أو بالنفور من كيفية العلاقة التى ربطت بينهما .. فهو يحمل لها بالإضافة إلى الحب الصادق عرفان بالجميل لموقفها النبيل تجاهه .. كان يحاول أن يتلمس لها الأعذار فى تصرفاتها . كان يبحث عن لغة يمكنه من خلالها أن يصل إليها ويجعلها تصل إليه .. لم ييأس لحظة ..

حاول أن يعلمها القراءة والكتابة .

بل كان يخفى توتره وإحساسه بالصدمة، فى سبيل أن يبث فيها الثقة والأمان .. كان يسعى من أجل أن يرد لها الجميل فيكثر من مديحها ويكثر من تقديسه لأرائها حتى ولو كانت سطحيه .. كاد أن يشعرها بأنها أعظم امرأة فى الوجود .. وأظهر نفس التقى بها . حتى أنها أصبحت فى كثير من الأحيان تصدق نفسها وتنسى نواقصها فتزيد من ضغطها النفسى عليه .. وهو يتحمل بلا كلل على أمل أن

ترتقى بفكرها ويسمو بثقافتها حتى يتمكن من معايشتها فى ظل حياة طبيعية بعيدا عن العقد والتوترات النفسية التى لم يكن هو سببا فيها .

ولم يكن عسيرا على عمرو صديقه الصدوق أن يشعر بأن هناك خلل ما يشوب تلك الزيجة .. حاول أن يستفسر منه شخصيا ولكنه لم يجد لديه الإجابة الشافية .. وازداد الأمر غموضا بالنسبة إليه عندما انعدم تواجد شريف فى الشركة فجأة ... أصبحت صفاء تتولى أمورها بكل دقائقها من خلال هيام سالم .. ولم يجد عمرو وسيلة آخرى سوى أن يلجأ إلى فاطمة صديقتها المقربه ، خاصة أنه لاحظ منها تقربها إليه وميلها الشديد للاقتراب منه .. فبادرها قائلا :

- آنسة فاطمة .. هل لديك تفسير لما يحدث فى الشركة الآن ؟

أجابت وهى سعيدة لأنه خصها بالاهتمام :

- ماذا تقصد يا أستاذ عمرو ؟

- أقصد طبيعة العلاقة بين صفاء هانم والدكتور شريف .

ابتعدت بنظرها عنه وهى تقول :

- المفروض أنك أقرب منه عن أى إنسان آخر .

- أنا أتحدث عنك وعن صفاء هانم .. أعتقد أنك تعلمين الكثير عن حياتها الخاصة .. فأنت صديقتها تقريبا الوحيدة .

ابتسمت وهى تزداد زهواورددت :

- نعم هى صديقتى .. ولكن .. مـ سر اهتمامك المفاجيء بتلك العلاقة .. فهما زوجان كما تعلم .. وقد يحدث خلافات بينهما كأى زوجين فى الدنيا ..و..

قاطعها بلطف :

- أريد أن أعرف سر الخلافات .. لعلى أستطيع أن أقدم المساعدة لهما .. أو على أقل تقدير لصديقى .

صمتت وفى عينيها نظرة تردد .. مما دفعه أن يردف قائلا :

- أشعر بأنك تعلمين شيئا .. وتخفينه عنى .

سارعت كأنها تحس غضبه وقالت :

- انا لا أود أن أخفى عنك شيئا .. ولكن .. ولكن كل ما أعرفه أنه أمرت بنشر طلب موظفون جدد فى الجريدة .

- وما الغريب فى هذا ؟

قالت بحذر :

- من ضمن الوظائف المطلوبة .. وظيفة مدير عام للشركة !!

تساءل بنبرة منفعلة :

- تقصدين أنها تبحث عن بديل لشريف .

أجابت مستسلمة :

- ارجوك يا أستاذ عمرو .. أنا لا أُحب أن أراك منفعلا أو أكون سببا فى حيرتك .. فأنت قد لا تعلم مكانتك عندى .. أقصد عندنا .

أجاب وهو يتأهب للانصراف :

- يبدو أننى لا أعلم شيئا مطلقا .

وانصرف من أمامها .

وفى اليوم التالى كانت الشركة مكتظة بالموظفين الجدد .. كل منهم يحمل أوراقه على أمل الالتحاق بالوظيفة المطلوبة .. بدءاً من الساعى وانتهاء بالمدير العام .

بينما جلست صفاء وراء مكتبها الفخم تتلقى بين الحين والآخر اتصال تليفون داخلى من هيام سالم تخبرها فيه بأن القادم إليها يريد العمل فى وظيفة كذا .. فتستقبله صفاء وهى فى صورة مهيبة وتردد بعض الأسئلة المعتادة وتكررها مع الجميع :

.. ماهى مؤهلاتك ؟

.. أين كنت تعمل فى السابق ؟

.. لماذا تركت العمل ؟

.. اترك عنوانك عند السكرتيرة وسوف نتصل بك !!

وهكذا يدخل إليها الواحد تلو الآخر وهى تملؤها النشوة والثقة المفرطة فى نفسها، خاصة وأن كل منهم كانت تسبقه الرهبة والخوف من فقدان الوظيفة فيزيد من تعبيرات التقدير والاحترام لها، وهى بالتالى تزيد من كبريائها مستمتعة بلحظات الغرور التى تشمل كيانها بقوة .. إلى ان اهتزت الأرض تحت قدميها فجأة .. وشعرت بالدماء تتدفع بشدة إلى رأسها وكأنها تتسابق للانتحار .. وقلبها يكاد لا يحتمل

دقاته المتلاحقة .. وعينيها تغشاها سحابة رمادية وهى تتمنى أن تفقد بصرها ولاترى ما تراه الآن ..

فجأة وجدت نفسها وجها لوجه أمام نبيل عبدالهادى الابن الأكبر للأسرة التى كانت تعمل عندهم كخادمة منذ عشر سنوات .. لحظة تجمد خلالها كل شيء .. الأنفاس كادت أن تتوقف .. والصمت بدا وكأن له رائحة نفاذة .. والنظرات متحجرة .. كل ما أثبت أنها لازالت حية مجرد همسة رددها الواقف أمامها قائلا وهو مذهول :

- مستحيل !!

احتبست الحروف فى حلقها، ولم تستطع أن تنطق ببنت شفه .

بينما تقدم هو بخطوة .. ثم أردف :

- صفاء .. أنت صفاء

كان الشحوب قد اكتسى وجهها، وبصعوبة بالغة قالت :

- أهلا .. تفضل .

أسرع ليجلس أمامها بلا تكلف، بينما تهاوت هى فوق مقعدها كأنها تسقط فى بئر عميق ليس له قرار .. ثم قالت بهدوء :

- أستاذ نبيل .. أنت .

ولكنه يقاطعها بفرحة :

- ملامحك لم تتغير .. أنت كما أنت .. بل ازدت جمالا .

مضت لحظات صمت منها، قفزت خلالها صورة الماضى إلى ذهنها، وتذكرته وهو يعبث بجسدها النحيف أثناء فترة مراهقته،

وكيف كانت مستسلمة تماما له علـى غير وعى بينما كـان هو أشد حرصا للاستمتاع بتلك المرحلة السنية من حياتـه معهـا ..و.. أفـاقت على صوته من جديد قائلا :

- إن ما أراه الآن أغرب من الخيال . لا أصدق أن صفـاء هـى التى تجلس أمامى .. آه لو تعلمى كم حزنت عليك عندما تركتينا .

ومرة أخرى تسترجع قهرا تلك الذكريات المؤلمة ، عندما أصر والده أن يعيدها إلـى أهلها حينمـا لاحظ تصرفـات نبيل معهـا فخشى على ولده من الفساد .

أجابت بعد أن إذدردت ريقها بصعوبة :

- وكيف حالكم ؟

ابتسم فى مودة .. ثم قال :

- أشياء كثيرة حدثت .. توفـى والـدى .. وأختـى فـى السنة النهائيـة بكلية التجارة .. وأمى حزينة على فراق والدى .. أمـا أنـا كمـا أنـا لا جديد فى حياتى .. تخرجت من الجامعة ولازلت أبحث عن عمل منـذ ثلاث سنوات .. ولم أكن أعلم أن طاقة القدر ستفتح لـى فجـأة وأن أراك .

حاولت أن تبتسم .. ثم قالت :

- وماذا تريد أن تعمل ؟

أجاب بثقة اهتزت هى لها :

- لا .. الوضع اختلف الآن .. المهم أخبرينى هل زوجك هو صاحب تلك الشركات .

قالت باستحياء :

- لا .

- والده

- لا .

قال بجدية :

- إذن من صاحب الشركات ؟

أجابت وكأنها مذنبة :

- أنا .

اتسعت عينيه وهو يردد :

- أنت !!

وفى هذه اللحظة دخلت هيام سالم عليها فى المكتب وفوجئت بتلك الجلسة الودية .. ثم تقدمت نحوها قائلة :

- صفاء هانم .. هناك الكثير من الموظفين الجدد فى انتظار مقابلتك.

وهنا نهض نبيل عبدالهادى وهو يقول بتودد :

- سأتركك لعملك ياصفاء .. وأراك فيما بعد .. وقبل أن يغادر المكتب توقف ملتفتا إليها قائلا :

- لا داعى لمقابلة أى موظف يطلب وظيفة المدير العام .. أليس كذلك ..و..

انصرف بعد أن أغلق الباب خلفه .

بينما وقفت هيام تراقب الموقف باندهاش، خاصة وأن ذلك الزائر ينادى صفاء باسمها المجرد دون أدنى تكلف .. حاولت أن تفهم شيئا ولكن فكرها لم ينقذها .. وانتهت على صوت صفاء قائلة :

- سأكتفى اليوم بهذا القدر .. أخبرى الباقين أن يأتوا فى وقت آخر .

وبفطرة هيام الشريرة استشعرت بأن هنالك ما يدور فى الخفاء بين صفاء وذلك الرجل .. فرمقتها بنظرة خبيثة وهى تقول :

- والذين حضروا لوظيفة المدير العام

نظرت إليها بغيظ قائلة :

- يمكنك الانصراف الآن .

ابتسمت الآخرى بدهاء وأخذت طريقها للانصراف بينما سكنت صفاء فى مكانها لاحول لها ولا قوة .. بدت وكأنها غائبة عن الوعى .. مخدرة .. صدمة اللقاء كانت أقوى من تحملها .. امتزج الخوف بعصبيتها .. تلاحمت صور الماضى مع حقيقة الواقع .. وكان ذلك كفيلا بأن يزيد الموقف تعقيدا بينها وبين زوجها شريف .. كانت تحاول أن تثبت بأنها ليست ضعيفة .. ليست معقدة فلم تجد سوى شريف لكى تمارس معه تلك المحاولات .. لأنها تحبه .. ولأنها تخشى أن تفقده فكانت تسعى لأن تبدو أمامه قوية .. أرادت أن تشعره بأنها قوية وبأنها لا تخشى الصدمات إذا غدر بها .. وبأنها

أقوى منه شخصيا .. كلها محاولات يائسة وطائشة .. وهو حائر لايعرف كيف يتعامل معها، كلما حاول التقرب إليها تفهمه خطأ وتظنه يفتعل تصرفاته . فتثور دون أن تدرى .. وتزيد من ضغطها على أعصابه وهو يسبح فى دوامات متعددة ما بين حبه القوى لها . وبين تصرفاتها الغريبة .. بدت وكأنها قطة صغيرة من شدة خوفها تحاول أن تنشب أظافرها فى كل من يقترب منها .

بات يخشى أن يمسك بكتاب أمامها .. أن يتفرغ لمشاهدة حلقة أجنبية بالتليفزيون . أن يتصفح جريدة لوقت طويل . أن يستدعى أصدقائه حتى لاتدور أمامها بعض الأحاديث التى تجهلها ..

حاول أن يسترضيها على حساب نفسه .. وكأنه بذلك يرد إليها الجميل وأن يحمى ذلك الحب الذى بدأ يصرخ ويئن فى داخله من كثرة تصرفاتها اللاواعية . ولكنها مسكينه وأضعف من أن تفهم حقيقة مشاعره نحوها، لاتعرف من أين تتلقى السهام .. شعرت بأن المجتمع كله يحقد عليها ويكرهها .. فحقدت على الجميع .. تتشكك فى كل حرف يقال لها وكل تصرف أمامها وكل نظرة إليها .. فأعلنت الحرب على الآخرين .. بل الدمار ..

وبدأت تدمر فى نفسها كل إحساس جميل وهى لا تدرى، متصورة بأن أسلوبها سوف يحميها من الآخرين .. وسيحمى حبها لشريف .. ولكن كان تصورها شيئا والواقع شىء آخر .. حيث بدأت خيوط الحب تتمزق رويدا رويدا بينها وبين زوجها وهى لاتدرى ماذا يخبىء لها القدر !

(٦)

ولكن الأيام كانت تخفى لها الكثير .. فأظهرت لها نبيل عبد الهادى الذى دأب يواصل محاولاته لمعرفة كل شىء عنها .. واستطاع أن يعلم بأنها زوجة لأستاذ جامعى، وتعيش حياة هادئة .. ولكن كان ما يشغله أن يعرف مصدر ذلك الثراء المفاجىء .. حاول كثيرا ولكنه فشل .. مما دفعه لمطاردتها فى كل وقت حتى أصبح تواجده المستمر فى المكتب ملفتا لنظر الموظفين، خاصة هيام سالم وتابعتها فاطمة .. إلى أن جاءت لحظة المكاشفة عن النوايا بينها وبين نبيل .. فبادرته قائلة :

- ماذا تريد بالضبط ياأستاذ نبيل ؟

أجاب بلا مبالاة :

- لاشىء ..

- ألا تعلم أننى زوجة .. وأحب زوجى أيضا .

قال مبتسما :

- وأنا .. ألم يكن بيننا ما يستحق أن نستعيده الآن ؟

قالت بحدة :

- أنك تعلم إننا كنا أطفال ..و..

قاطعها بسماجة :

- أنا لم أكن طفلا .. أليس كذلك . ؟

نظر إليها بنظرة تضم الكثير من المعانى الجريئة والمتبجحة ثم أردف قائلا :

– على كل حال هذا سابق لأوانه .. المهم متى سأتسلم وظيفتى الجديدة ؟

تساءلت بحذر .. أيه وظيفة ؟

قال بخيلاء : وظيفة المدير العام .

أجابت وكأنها تصرخ :

– مستحيل .. ثم أنت لاتصلح لهذه الوظيفة .. لا سنك ولامؤهلاتك .. ولاخبرتك .. ولا..

ولكنه يستوقفها مرة آخرى قائلا :

– ولكنى أحق بها .. أما المسائل الآخرى فهى شكليات ليست لها ضرورة

شعرت باليأس وهى تجيبه :

– أرجوك ياأستاذ نبيل تواجدك هنا باستمرار قد يلفت النظر .. بإمكانى أن ألحقك بوظيفة فى فرع الاسكندرية .

ضحك بسخرية لذجة، وهو يقول :

– ياصفاء لا داعى لأن نغرق السفينة .. اجعليها تسير هادئة فوق مياه حياتك .. سأمنحك فرصة للتفكير وسأتصل بك تليفونيا لكى تخبرينى بموقفك .

وتركها منصرفا .

وكانت تلك هى بداية النهاية لحيرة هيام سالم، حيث دأبت

التصنت على كل مكالمات صفاء، واستطاعت من خلال ذلك أن تكتشف حقيقة العلاقة التي تربط بين صفاء ونبيل عبدالهادى وأحست أنها ملكت نواصى الدنيا كلها، وأدركت أنها لامحال سوف تقضى على تلك المرأة التى سلبتها مركزها الهام، وسلبتها طموحها فى الارتباط بشريف .. المرأة التى سلبتها كل حقوقها كما كانت تتصور أو تدعى .

ووجدت فرصتها فى مواجهة نبيل عبدالهادى بالحقيقة ، وبدأت تمارس معه هواية المساومة .. وكأنها أدركت مفاتيح شخصيته تماما .. كما أنه استجاب لتلك المساومات على أمل أن يحصل على المركز والمال معا .. وتم الاتفاق بينهما تحت رعاية الشيطان .. وراحت هيام سالم تبث سموم الإشاعات عن تلك العلاقة الدنيئة التى تربط بين صفاء ونبيل، مستغلة سيطرتها على فاطمة وجعلت منها بوقا لها، وبالتالى كان من السهل أن تصل تلك الإشاعات إلى مسامع عمرو، وهو يكاد لايصدق أذنيه كلما وصله من الأمر شيئا، واكتملت خيوط المؤامرة عندما علمت هيام بموعد لقاء نبيل وصفاء، وذلك فى أحد الكازينوهات بعد إلحاح شديد منه لكى يضعا النقط فوق الحروف .

وبكل الحقد الذى يملأ قلبها، وشغفها فى تحطيم غريمتها اللدود، سارعت بالاتصال بشريف تليفونيا فى مكتبه بالكلية وبدأت فى إشعال فتيل الجريمة قائلة :

– ياشريف بك لم أكن أود أن أكون أنا البادئة فى إخبارك بالحقيقة .. ولكن حرصى عليك وعلى مشاعرى التى أحملها لك رأيت من واجبى أن أخبرك بكل شيء .

– أى حقيقة .. وماذا تقصدين يا آنسة هيام ؟

سارعت تكمل حديثها :

- الشركة كلها تتحدث عن هذا الموضوع .. بل هى تريد أن تأتى به كمدير عام للشركة .. حتى صديقك الأستاذ عمرو يعرف الحقيقة ولكن يبدو أنه لم يجرؤ على إخبارك بها .

صرخ قائلا :

- أنت كاذبة .. موتورة .. وأنا لا أسمح لك بأن تتحدثى هكذا عن زوجتى.

قالت بصوت كالفحيح :

- إذن اذهب الآن إلى كازينو الأمل وستجدهما معا ... أما أنا فلى حساب معها قد حان وقت تصفيته وأن ترجع الأمور إلى مكانتها الطبيعية . وأغلقت الخط بينهما .

ولم تكن صفاء تدرى فى هذه اللحظة وهى تحاول جاهدة أن تضع نهاية لمحاولات ذلك الشاب الطائش، بأنها قد أحيطت من كل جانب بكل شرور الحقد وسموم الكراهية .. فبدت هدنة فى بداية الأمر وهى جالسة أمام نبيل عبدالهادى فى أحد أركان كازينو الأمل .. وبادرته :

- اسمع ياأستاذ نبيل .. سأكون واضحة معك تماما وبدون مقدمات أو مراوغة أعرض عليك موافقتى المسبقة لكل طلباتك .. فأرجوك أخبرنى بها حتى انصرف .

تململ قليلا قبل أن يجيب قائلا :

- طلباتى هى حمايتك .. هى الحفاظ على أموالك .. هى استرداد حقى منك .. أنت تذكرين جيدا ما كان بينى وبينك ولولا الظروف لكنت اليوم زوجتى .

قالت بشىء من الحدة :

- أرجوك .. هذا أمر انتهى .. المهم الآن أن توضح ماذا تريد

أجاب ببرود ..

- أريدك أنت !

- سأقبل أن تكون مديرا للشركة .. لكن بشرط ألا تتدخل فى حياتى ..و..

قاطعها بسخرية :

- لم يعد يكفينى ذلك المنصب .. بل أصبحت لا أريده .. وطالما أنت لا ترغبين فى .. فسأحاول أن أبدأ حياتى من جديد بعيدا عنك .. وعليك أن تقدرى هذا .

ارتاحت لتلك الرغبة، وأخفت مشاعرها وهى تقول :

- سأعطيك ثلاثون ألف جنيها .. بل مائة ألف .

- صاحت مذعورة .. أنت جننت

- مائة ألف .. ألا تساوى أن يصبح ماضيك فى مقبرة النسيان .. مائة ألف .. ألا تساوى حياتك المستقرة واحتفاظك بنفس صورتك المبهرة .. مائة ألف .. ألا تساوى تمسكك بزوجك الدكتور شريف ..أو..

تدخلت فى حديثه بثقة :

- لا تذكر اسمه على لسانك .. فهو أكبر بكثير من أن يكون مجالا لحوارنا الكريه .

قالت هذا وهى لا تدرى أن شريف يقف على مقربة منها يشاهدها بعينين زائغتين .. ونبضات قلبه تتلاحق بسرعة فائقة ..

ودماؤه تتقافز فى عروقه كأنها حائرة لا تسير فـى اتجاهها السليم . لا يصدق ما يراه ..

مستحيل ان تكون تلك هى صفاء، الإنسانة الرقيقة النظيفة .. الإنسانة التى أحبها بكل مشاعره ..و.. ولكنها الحقيقة .. وبكل هدوء تراجع إلى الوراء منصرفا تاركا صورة الخيانة فى مكانها .. وحاملا فى وجدانه هموم الدنيا بأثرها .

و .. انتبهت على صوت نبيل مرة آخرى وهو يتساءل :

- ماذا قررت؟ ثقى أننى لن أصبر كثيرا .. فإما أن توافقى.. وإما الطوفان.

همهمت فى انكسار :

- خمسون ألف .

هزتها المفاجأه عندما أجاب باقتضاب :

- موافق .

وكأنها تخشى أن يتراجع، سارعت بالنهوض استعدادا للانصراف .. ثم قالت :

- إذن احضر غدا إلى مكتبى .. ولكن لآخر مرة .

وانصرفت من أمامه .

أحست بالسعادة وهى تقود سيارتها فى طريقها إلى مكتبها .. شعرت بأنها تخلصت من كابوس كئيب اقتحم حياتها دون مقدمات .

ولكن للأحداث كلمة آخرى .

فما أن دخلت إلى مكتبها وجلست فى استرخاء، استدعت هيام سالم على الفور .. وجاءتها وهى جامدة الملامح بلا ابتسامة باهته أو نظره متخابثه كعهدها دائما .. وهمست بلا اكتراث :

- ماذا تريدين ؟

لم تنتبه صفاء لذلك التغير وبادرتها قائلة :

- أحضرى لى شيك لأمر حاملة بمبلغ خمسون ألف جنيه لكى أوقعه.

اقتربت منها الأخرى وكأنها تتأهب للانقضاض عليها ..

ثم قالت :

بأى صفة ؟!

رمقتها صفاء بنظرة لامعنى لها وهى تتساءل :

- ماذا تقصدين .. بكلمة أى صفة ؟

جلست أمامها قبل أن تقول :

- سؤالى واضح يامدام..أنت لا تملكين حق اتخاذ أى قرار هنا فى شركتى

وقفت منزعجة وكأنها لدغت من عقرب .. وقالت :

- شركتك ... ماذا تقولين ... هل جننت ... أم أنك ...

قاطعتها بحدة وتربص :

- لا داعى للتجاوزات فى الألفاظ .. وأنا أحذرك حتى لا يكون خروجك من الشركة بشكل مؤسف .

احتبس صوتها وهى تحاول أن تصرخ فى وجهها قائلة :

- لابد وأنك قد جننت ... ألا تعلمين ن الشركة شركتى وأنك مجرد موظفة هنا .

جلجلت ضحكة هيام سالم وهى تنهض قائلة بتحد صارخ :

- يامدام أنت تنازلتى عن الشركة بكل فروعها وحساباتها لى منذ ثلاثة أشهر ... ومنذ ذلك الحين وكل التعاملات تدور بأسمى ... وأنت لاتملكين شيئا هنا ... وكل شئ ثابت فى الأوراق والمستندات ... وأنا لست مسئولة عن جهلك ....و...

بهستيرية شديدة صرخت بكل قوتها تستدعى الموظفين وجاءت بينهم فاطمة التى ما أن رأتها صفاء حتى بادرتها وكأنها تبكى :

- انظرى ماذا تقول هذه المعتوهة .... إنها تدعى أشياء غريبة .... تقول إن الشركة شركتها وأننى تنازلت عن كل شىء لها.

وببرود غريب قالت فاطمة :

- هكذا تقول المستندات التى تحت يديها .... فبمقتضى التوكيل العام الذى معها ... وكذلك موافقتك الكتابية تم كل شىء ... ثم إن الشركة تتعامل باسمها منذ أكثر من ثلاثة أشهر ... فأين كنت كل هذا الوقت.

انهارت وهى تجلس قائلة :

- حتى أنت يافاطمة ...!!

أجابتها بإصرار :

- أنا لا أقول غير الحقيقة .

مضت لحظات صمت مشوب بالتوتر، سكتت صفاء خلالها وكأنها تتأكد من كونها لا تعيش أحلام يقظة .... ولكنه الواقع .... الجميع ينظرون إليها ببلاهة وفتور ... بينما هيام تجلس بثقة كبيرة ... وفاطمة تتابع الموقف بلا مبالاة ... وأدركت صفاء أنها وقعت فريسة لمؤامرة دنيئة اشترك فيها أقرب الناس إليها .... ولكنها شعرت بعجزها حتى عن المجادلة معهم ..

وبكبرياء ذبيح همهمت قائلة :

- أنتم مخطئون ... لقد ظننتم أنكم ستستغلون نقاط ضعفى وجهلى بتلك الأمور .... ولكن لا ... يبدو أنكم غفلتم أننى زوجة لرجل يمكنه أن يضعكم جميعا فى السجن باسم القانون ... وأنا أمنحكم آخر فرصة قبل أن أبدأ تصرفى معكم .

وانتظرت رد فعل كلامها إليهم ... ولكن طال انتظارها ... وفوجئت بهيام تقف ثابتة ... ثم تتجه إلى الباب قائلة :

- والآن يمكنك أن تتصرفى بهدوء ... قبل أن يكون لى معك شأن آخر .

وبدت وكأنها تجر فى خطواتها ... وكأن قدميها لم تعد فى استطاعتها حمل جسدها الرقيق ، واتجهت صامتة إلى الباب من أمامهم وهى لا تزال متشككة فى أن ما تراه حقيقى أم درب من الخيال .

وبصعوبة بالغة كانت تقود سيارتها بسرعة كبيرة والدموع تملأ عينيها وهى فى طريقها إلى منزلها .. كل خلجة من خلجات كيانها تنتفض هلعا وغيظا .. وهى تردد إلى نفسها :

.. سأجعلهم يندمون على ذلك التصرف

.. سوف ينتقم منهم شريف أشد الانتقام

.. سألقى بهم جميعا إلى الطريق

.. يا إلهى .. ماذا فعلت لكى أعاقب هكذا

.. لو كنت تعلمت .. ولكن ما ذنبى أنا

.. ياترى سأجد شريف بالمنزل ؟

وصلت إلى منزلها .. وما أن رأت شريف يجلس سابحا مع أفكاره حتى هرعت إليه باكية بمرارة .. قائلة :

– انقذنى ياشريف .. إنهم يحاولون خداعى .. سيأخذون منى الشركة وكل ما أملك ...و...

ولكنها صمتت للحظة عندما لاحظته غير مكترث .. وينهض من مكانه بهدوء شديد ثم التفت إليها قائلا :

– اسمعي ياصفاء .. أنا رجل مثقف ولن اترك نفسى لأى تصرف همجى .. ولكنى أود أن أخبرك بشيء قبل أن ....

ولكنه صمت فجأه .

تقدمت نحوه وهى تواصل بكاءها .

– قلت لك إنهم سيسلبون حقى فى الشركة .. ألا تدرى حجم الموقف .. أقول لك هذا .. وتقول لى أنك مثقف .. ما دخل هذا فى ذاك .

أجاب بحزم :

– يجب أن تنصتى إلى للنهاية ... لقد منحتك اسمى .. وشرفى

وحبى .. وثقتى التى كانت بلا حدود .. لقد تجاوزت كل تصرفاتك معى وكنت أبحث دائما لك عن الأعذار المناسبة وتحملت محاولاتك للسيطرة على حياتى الخاصة .. كنت فى كل لحظة أعيش على أمل أن تتبدلى وأن تتفهمى وضعى الاجتماعى والثقافى .. حاولت أن أرتقى بك بكل السبل وتغاضيت عن عنادك وإصرارك غير المبررين .. ولكنك بدلا من أن تصونى هذا الرجل .. حاولت ذبحه بل حاولت القضاء عليه، وكأنك تنتقمين من ماضيك أو تنتقمين من الرجال كلهم فى شخصى .. قدمت اليك يد الحب فبترتها بقسوة .. قدمت اليك صدر الصدق فطعنتيه بخنجر الغدر .. قدمت إليك نفسى فوضعت قدمك فوقها على أمل أن ترتفعى .. ولكنك للأسف لم تنجحى فى ارتفاعك .. بل نجحت فى سقوطك للهاوية ومثلك لا يحزن عليه .

صرخت فى هلع وهى تردد :

- ماذا تقول ياشريف .. أنت تتحدث وكأنك تهذى

أجاب بسخرية مكلومة :

- نعم أنا حقا كنت أهذى .. كنت حالما وواهما عندما منحتك ثقتى .

- أرجوك أخبرنى ماذا يدور فى رأسك .

قال بعد أن التقط أنفاسه :

- رأسى ليس فيه غير صورتك الوضيعة وأنت تجالسين هذا المدعو نبيل عبدالهادى .. رأسى ليس فيه إلا الندم على كل لحظة منحتها لك من حياتى

تسمرت فى مكانها .. وجفت دموعها فجأة من ذهول الموقف وانسحبت الدماء من وجهها قبل أن تردد هامسة :

- ماذا قلت ؟ .

أجاب مسرعا :

- لقد رأيتكما .. وانصرفت من أمامكما إلى حيث المكان المناسب .. إلى المأذون .. فأنت الآن طالق منى ياهانم ولاشىء يقيدك الآن .. فأذهبى إليه لعله فى شوق إليك وفى انتظارك .

قالت فى يأس .. أنا ..

تحرك مرة آخرى إلى الباب ثم قال بجدية :

- أنت مكانك ليس هنا .. فاسمحى لى أن أوصلك إلى خارج المنزل .. لأننى لم أعتد الاحتفاظ بالأشياء القذرة فى بيتى .

ووقف فى ثبات بجوار الباب .. بينما تحركت هى نحوه دون أن تنظر إلى عينيه .. ومرت من جنبه وهى منكسة الرأس .. ولم تدر إلا بصوت ارتطام الباب بقوة من خلفها .

(٧)

تنوعت ردود الأفعال بعد سماعهم بخبر انفصال شريف عن صفاء بالرغم من أن الجميع كانوا يتوقعون حدوثه بين الأونة والأخرى . هيام سالم حاولت أن تطرق الحديد وهو ملتهب، وبدأت تحاصر شريف بالمكالمات التليفونية .. ولكنه كان دائما لا يمنحها فرصة التحدث إليه .. حتى عمرو لم يستطع مقابلته لكى يتحقق من تفاصيل القصة المؤلمة .. كان شريف يملأ قلبه الحزن المرير .. الحيرة أسقطته فى دوامات عديدة لم يجد لها مخرجا .. بات كمن سلبت إرادته منه، وراحت الأفكار تتقافز فى كل اتجاه حائرة تارة ومنزعجة أخرى .. كيف فشلت هذه الرابطة القوية التى كانت تربط بينهما .. كيف تبدأ الخطى فوق طريق الوفاء والتضحية وتنتهى عند سفح الخطيئة والخيانة ..

كان يعلم أن الحب لا يفرق بين قلوب الأثرياء والفقراء ولا بين المثقفين والجهلاء .. ولكن الحب أصبح فى حياته وكأنه إحساس زائف مخادع، يغدر بالقلوب ويدمر سعادتها .. فمن المسئول إذن .. هل هو الحب الذى بدا هزيلا مستسلما وضعيفا لا يقوى على الدفاع عن نفسه أمام طعنات المكائد والغدر .. أم أن النفوس هى التى لا تعرف كيف تتعامل مع هذا الإحساس العظيم .. من الظالم ومن المظلوم ؟

كلها تساؤلات كانت تموج فى صدر شريف وهو حائر أمام تلك النهاية القاسية .. كيف تغدر به الإنسانة التى منحته من نفسها الحنان والرعاية ومن أموالها برضاء تام .. كيف يكون الحب فى

أبهى صورته وهو فى نفس الوقت يحفى فى طياته لحظة تمرد قاتلة تفتك بكل الروابط وبكل الأحاسيس الجميلة ؟

وفشل فى الإجابة على أى تساؤل يدور فى ذهنه، ولكنه استراح لتبريره باستحياء بأنه لم يكن حيا .

أما صفاء فكانت فجيعتها فى الحب أكبر من صدمتها من تصرف شريف تجاهها .. وكأنها وجدت العذر له أو أرادت أن تجد له مايبرر تصرفه .. ولكنها لم تشفق على الحب المكلوم .. اعتبرته هو المسئول وكأن الحب كائن حى لديه القدرة على المراوغة والتخطيط وحبك المكائد .. وكأن الحب هو الوهم الجميل والزيف المتقن .

هى الأخرى كانت فريسة للحيرة والذهول .. لا تعرف كيف لم يستطع الحب الذى كان فى قلب شريف أن يجعله يتأنى قليلا حتى يتأكد من الحقيقة .. كيف لم يستطع الحب أن يدافع عن نفسه وظل هامدا مستسلما وكأنه تعمد ذلك ليطيح بسعادتها .. فكرهت هذا الإحساس وهى لا تدرى أنه برىء .

نحن نبحث عن الحب بشغف شديد ، وحين نجده غالبا ما نفشل فى التعامل معه .

وبدأت الأحداث تمضى فى توتر كبير .. كل شىء انقلب رأسا على عقب .. التصرفات بدت مبهمة، والتوقعات أصبحت فى حكم المستحيل .. هيام سالم تقمصت الشخصية الجديدة واستغرقت فيها تماما .. لم تعد تلك الأنثى الناعمة والتى كانت تمارس حياتها من وراء قناع المودة الزائفة والابتسامات الهادئة بل تحولت إلى قطة

مسعورة راحت تنبش مخالبها فى كل من يعترض طريقها .. خاصة فاطمة التى أصبحت تتعامل معها وكأنها رمزا للماضى الكئيب .. فكرهتها وكرهت رؤيتها، إلى أن جاءتها الفرصة لكى تعبر لها عن مشاعرها الجديدة نحوها وأخبرتها بحدة :

- ياآنسة فاطمة يجب أن تتعاملى معى فى حدود حجمك الوظيفى، وليس من خلال أمنياتك وأحلامك .

أخذتها المفاجأة لبرهة قبل أن تجيبها :

- ولكننا أصدقاء .. وأنت تعلمين جيدا كم ساعدتك حتى حصلتى على هذه المكانة .

قالت بلا اكتراث :

- هذه المكانة أنا أستحقها منذ زمن بعيد، ولكن الظروف حالت دون تحقيقها قبل ذلك .. أما الآن فالوضع قد اختلف تماما .. وعليك بتقبله برضاء تام .. وهو خير لك

- ولكنك وعدتينى بأشياء كثيرة .. فأنا فى حاجة للمال الذى اتفقنا عليه .. كما أننى فى حاجة لتحسين وضعى الوظيفى .

قالت وكأنها تصرخ :

- لا أحد يمكنه أن يفرض على إرادتة .. ومن الخير لك ألا تجمحين بخيالك وإلا سيكون لى معك شأن آخر .

رمقتها بنظرة حاقدة وهى تتأهب للانصراف ثم قالت :

- من يدرى .. قد يكون لى أنا معك شأن آخر .

وانصرفت .

كانت هيام تحاول أن تبدو قوية أمام تلاحق الأحداث حولها فهى تدرك أن الصراع لم ينته بعد .. خاصة وأن صفاء قد لجأت إلى القضاء لاسترداد حقها .. وكذلك نظرات كل من حولها وهى تحمل فى طياتها معانى كثيرة من الصعب تحملها .. وحيرتها تجاه هدوء عمرو المثير وكأنه ينتظر هو الآخر فرصته لينقض عليها .. ولكن.

هناك أمر لم تحسن توقعه جيدا وهو موقف نبيل عبدالهادى الذى بدأ يطاردها بإلحاح كبير خاصة بعدما أدرك بأنه يتعامل مع شخصية غادرة، وليس غريبا أن تلدغه بنفس السم بلا تردد .. حاولت أن تستميله أو تستقطبه وعددت أساليبها فى التعامل معه .. فتارة تبدو عنيفة وأخرى تتظاهر بالسكينة .. ولكنه كان صعب المراس .. وراح يطاردها فى منزلها ويهددها بالظهور مرة أخرى فى الشركة، أخبرها بذلك وبوضوح عند زيارته الأخيرة لها فى منزلها، حيث فاجأها قائلا:

– أنا لن أستطيع الصبر أكثر من ذلك .. أريد حقى كاملا .

أجابت بخبث :

– ولكن الأمور لم تتضح حتى الآن .. فالموقف لا يزال غامضا ولا أعرف النتيجه .

– أنت تملكين كل شيء الآن .. ويمكنك أن تسحبى من الرصيد مائة وخمسون ألف جنيه وفورا .

اذدردت غيظها وهى تقول :

- لا يمكن هذا .. فالحارس القضائى يضع يده على كل شيء .. المسألة فى حاجة إلى وقت

دقق النظر إليها وهو يقول :

- إذن حررى لى شيك كضمان .

نهضت مذعورة من أمامه قائلة :

- أنا لست بهذه السذاجة .. كيف أعطيك شيكا وأنا لا أملك شيئا .

- أنت تحاولى مراوغتى .

عادت تصطنع الضعف مرددة :

- بل أنا فى حاجة لمساعدتك ومشورتك .

- إذن كونى واضحة معى .

اقتربت منه وكأنها تزحف، وهى تحاول أن تلقى عليه شباك أنوثتها بطريقة تمثيلية :

- أنا كلى بين يديك .

أحست وكأنه فجر قنبلة موقوتة أمامها حين قال بفتور .

- نتزوج .

صرخت دون أن تدرى :

- أنت مجنون .. كيف تجرؤ على هذا التفكير ؟

رمقها بسخرية قائلا :

- قلبك مشغول .. أليس كذلك ؟

مضت لحظات صمت بينهما .. فأردف :

- دكتور شريف !!

اتسعت عيناها وهى تحدق إليه، وكأنها اكتشفت فى هذه اللحظه بأنها تقف عارية تماما أمامه وبدون أقنعة ... حاولت أن تحسم الموقف فأجابت بثقة :

- هذا ليس من شأنك

قال بتهكم مشوب بالتحدى :

- على كل حال أنا لا يهمنى الارتباط بك .. ولكن أحذرك للمرة الأخيرة إذا لم تمنحينى حقى خلال أسبوع من الآن .. فأنا لن أتردد فى قتلك ..و..

انصرف من أمامها بعد أن أغلق الباب من ورائه بعنف شديد.

وهكذا وجدت هيام نفسها محاصرة من كل اتجاه .. لم تكن المسألة مجرد لعبة إذن .. أحست بالوحدة تخيم على حياتها .. الموظفون متربصون بنظراتهم إليها .. وعمرو يتجنب الاشتراك معها فى أى حوار .. ونبيل عبدالهادى يتوعد ويهدد .. وشريف لا يستجيب لمحاولاتها .. وفاطمة بدا الندم يزحف إلى صدرها، وأصبح ذلك واضحا فى تصرفاتها معها .

ومن أجل هذا قررت أن تخوض محاولة جريئة، أرادت من خلالها أن تسيطر على الموقف قبل أن يفلت الزمام من بين أصابعها.

وذهبت إلى شريف فى منزلـه، بكـل جـرأة وتحـد وإصـرار .. وقفت أمامه تستقطب ذهوله بابتسامة هادئة قبل أن تقول :

- هل تسمح لى بالدخول ؟

استوعب المفاجأة بسرعة .. ثم قال :

- تفضلى

وأفسـح لهـا الطريـق إلـى الداخـل .. ومـا أن جلسـت بادرتـه بنـبرة مستكينة :

- لست أدرى ماذا يدور فى خلدك الآن تجاهى .. ولكنى لم أجد غـير تلك الوسيلة لأن أراك .

سكن مع نظرة صمت نحوها، مما شجعها لأن تستطرد قائلة :

- لعلك لا تعلم أننى كنت على وشك الزواج مـن الشـيخ المهـدى قبـل وفاته بأشهر قليلة .. وقبل ظـهور صفـاء فــى حياتنـا .. لقـد حـاصرنـى بأمواله .. وأغرانى بأملاكه .. كنت يائسة من محـاولاتى لإستمالتك نحوى .. واشتد يأسـى بعـد حـادثك المشـؤوم .. وجـدت كـل الأبـواب موصدة أمامى .. علمت أنك فى حاجة إلى المال لكى تجـرى العمليـة فى عينيك .. وكان هو جشعا طماعا .. لم يهتم بـك .. ولـهذا قـررت أن أضحى من أجلك .. مهما كان الثمن .

تحركت شفتيه فى تردد وهو يتساءل :

- أى تضحيـة تقصديـن .. ثـم إن الشـيخ المهـدى كـان رجـلا وقـورا وشهما .. أم أنك ..

تدخلت مع كلماته، بعد أن نجحت فى للتقاطه للطعم .. قائلة :

- أنا أعرفه أكثر منك .. والدليل على ذلك أنه لم يفكر فى إنقاذك وإجراء الجراحة لك، خاصة أنه يعلم أنك لاتملك المبلغ المطلوب .

حاول أن يقول شيئا فهمس :

- ولكنه كان بالخارج فى وقت الحادث .

أجابت بتهكم :

- القدر كان رحيما به .. فخطفه الموت .. ثم توالت الأحداث بسرعة وأنا حائرة .. لا أعرف كيف أتقدم لمعاونتك . وجاءت صفاء لتفرض سيطرتها على الجميع .. لاهم لها إلا بيع أصول الشركات لكى تنفقها على هذا الشاب .. نبيل عبدالهادى .

اهتزت أهدابه قبل أن يقول :

- وهل كانت على علاقة به منذ زمن سابق ؟

لاحقته بخبث :

- نعم كانت تعرفه .. بل إنهما كانا يعيشان قصة حب قديمة .

- مستحيل .. إذا كان ما تقولينه الصدق . فلماذا سعت إلى وحاولت أن تستميلنى نحوها .. ولماذا تظاهرت بحبها لى . لماذا تزوجتنى ؟

ابتسمت بدهاء .. ثم قالت :

- لأننى كنت أعلم أنك سترفض أية مساعدات مادية من طرفى .. فعقدت معها اتفاقا .. كنت أظنه اتفاقا شريفا .. لقد توسلت إليها أن تسير الأمور بشكل طبيعى من أجل أن تجرى أنت العملية، وكأن

الشركة هى المتكلفة بمصاريف العلاج .. وذلك مقابل أن أساعدها فى إدارة الشركة، وأن تأخذ منى المبلغ المطلوب لعلمها بأن الشيخ المهدى كان يغدق على بالمال فى محاولة لإغرائى ولموافقتى على الزواج منه . فهى عادت للانتقام منى شخصيا، ولكنى تحملت من أجلك وحدك .

نهض والحيرة تمتلكه تماما .. ثم التفت إليها قائلا :

- هذا أمر لا يصدق .

نهضت هى الأخرى فى تحفز .. قائلة :

- عندى الدليل على صدق كلماتى .

- ما هو ؟

أجابت والبراءة تملأ نظرتها :

- ألم تكن تقرأ لك كل صباح أخبار الصحف فى التليفون؟

- نعم كانت تفعل .

- أنا التى كنت بجوارها .. وأنا التى كنت أملى عليها ما تقوله لك .. ألم تكن ..

وراحت تعدد كل تصرفات صفاء معه ، ثم تنسبها إلى نفسها .. استطاعت بقدرة فائقة أن تنقل إليه كل المعلومات التى استقتها من فاطمة .. وهو يجيبها بجملة واحدة وكأنه إنسان آلى .. مرددا :

- نعم كانت تفعل .

وبنبرة حزينة همست قائلة :

– ولكنها خدعتنى .. واستثمرت شعورك النبيل لصالحها .. واستمرت فى اللعبة للنهاية .

قال بأسى :

– كنت فى نظركما مجرد لعبة .

أسرعت تقول :

– أبدا .. لم تكن كذلك فى نظرى ولكنى كنت حائرة .. أريد أن أساعدك بأية طريقة .

– ولكنك اشتركتى معها لنهاية اللعبة كما تقولين .

– لا .. ولكنى أخشى عليك من الصدمة .. كنت سعيدة بعودة بصرك .. اكتفيت بأن أراك سعيدا .. كانت ابتسامتك تمحو بعضا من أحزانى .. المهم عندى سعادتك .. حتى ولو كان الثمن هو أن تكون أنت لغيرى .

رأته يجلس وكأنه يغوص داخل دوامات الغموض والحيرة .. وأرادت أن تشل تفكيره تماما .. فبادرته قائلة :

– ألم تكتشف فيما بعد أنها جاهلة .. ولأنها كانت تكذب عليك فى كل شىء .. ألم تعانى فيما بعد من غطرستها وعقدها المتعددة .

.. ولكنك بالتأكيد لم تكتشف شيئا هاما فى حياتها .

نظر إليها مستسلما، وكأنه مسلوب الإرادة وتساءل :

– ما هو ؟

شعرت بالفرصة مواتية، مما دفعها لأن تجهز علـى أى شك عنده .. وقالت بحزم :

- إنها كـانت خادمـة عند أسـرة نبيل عبدالهـادى .. ومـن هنـا بـدأت العلاقة بينهما .

همس مرددا :

- خادمة !!

- نعم خادمة .. بل أكثر من ذلك .. فالعلاقة بينهما كانت غير شريفة .. علاقة تتوجها الخطيئة .

بدأت تـتراجع بخطـوات قليلـة للخلـف، وكأنهـا تتـأهب للانقضـاض عليه .. ثم قالت بصوت هادىء :

- الآن قد استراح قلبى .. لا يهمنى ماذا سـيحدث فيمـا بعـد .. المهـم أننـى وضـعت بين يديك كل الحقائق .. ولن أحاول الدفاع عن نفسـى .. لأننـى أعلم جيدا أنك لازلت تنزف من جـرح الخيانـة و.. ..استدارت فـى طريقهـا للانصـراف .. ولكنـه وقـف فجـأة .. واسـتوقفها بصـيحـة مقهورة :

- انتظرى من فضلك .

التفتت إليه، وهى تدقق النظر إلى عينيه وكأنها تخدرة .. ثم قال :

- علمت أنك أصبحت المالكة الوحيدة للشركة .. فكيف ..

قاطعته باستكانة :

– لقد أعطيتها كل ما أملك من أموال الشيخ المهدى .. وبالرغم من أن الثمن كان بخس جدا .. إلا أنها لم تهتم .. فهى تريد أية أموال لتعطيها إلى عشيقها

شعر بكلماتها وكأنها نصلا حاداً راح يمزق فى صدره . فثبت ساكنا لا يعرف ماذا يقول .. بينما واصلت هى أدائها التمثيلى ببراعة فائقة .. وقالت وهى فى طريقها للانصراف من أمامه :

– أنا لا أطالبك بشىء .. فأنا أعلم جيدا أن الحب لايباع ولا يشترى .. ويجب أن تدرك أن مشاعرى نحوك لا تتغير مهما كان موقفك معى ..و..

انصرفت مسرعة وهى تدعى البكاء .. أو أنها تحاول أن تخفى دموعها من أمام عينيه .. وتركته وحيدا لتتجاذبه شتات الحيرة والظنون .

راح يقطع الردهة ذهابا وإيابا وهو لا يدرى كيف يحدد مشاعره فى تلك اللحظة .. هل هو مذهول .. أم حائر .. أم ضائع أو متمرد .. أم ثائر .. لا شىء فى خياله ووجدانه سوى صورة صفاء التى هاجمته مع ذكرياتها معه .. تذكرها كيف كانت تستبد برأيها لدرجة العناد على غير حق، وكأنها تحاول أن تخفى إحساسها بالضعف أو النقص .. تذكرها وهى تستخف بآرائه عن عمد لعلها بذلك تثبت له أولا ولنفسها ثانيا بأنها تدرك الحياة أكثر منه، وبأن خبرتها بالناس والمجتمع تفوق معلوماته .. كان الخوف والتشكك وعدم الثقة هم مظلة مناقشاتها معه .. تذكر كيف حاول أن يكون بسيطا فى أفكاره وحواره معها، بينما هى تتمادى فى محاولات

لتمزيق كل روابطه الاجتماعية لعلها تفلح فى الانفراد بـه واستقطابه من خلال خبرتها الجنسية، وهو يستجيب إشفاقا عليها لا رغبة فيها .

لقد استسلمت لسلبيات الجهل ولأنات الماضى وجعلت منها أسلوبا حيا في تعاملاتها معه ومع الآخرين .. خدعها امتلاكها للمال ومنحها إحساس بالقوة الزائفة .. قوة الغباء المدمر الذى طالما بدأ بأصحابه فدمرهم بلا هوادة .. باتت لا ترى إلا بعين الشك .. ولا تتحدث إلا بلسان الحذر .. ولا تنصت إلا بأذنى الترقب .. جعلت من حياته معها وكأنها معركة ضارية يجب أن لا تنتهى لكى تستمر الحياة .. تذكرها وهى خاضعة للحب دون أن تتعايش معه .. مستسلمة لمذلة الماضى ولكن فى مكابرة غير حقيقية .. مجموعة من التناقضات الغريبة تشكلت فى صورة امرأة أحبت رجل لم يفلح فى إنقاذها من براثن أحاسيسها المتقلبة .. ثم جاءت الطامة التى جعلته يتصورها فى صورة الخائنة .. فكرهها .. وكره حبها وكل لحظة حاول أن يتعايش فيها معها وهى أيضا لم تكن أسعد حظا منه فى تصوراتها تجاهه .. فهو فى نظرها غادر لم يصن لها الجميل .. مخادع لم يساندها فى وقت هى فيه شديدة الاحتياج إليه .. متعالى لأنه كان يحاورها بأسلوب لم تعتد عليه .. متكبر لأنه كان يحاول أن يفرض آرائه عليها .. تصورته يميل إلى المظاهر وبأنه فى مستوى اجتماعى وأدبى مرتفع .. أصبح فى نظرها اتكاليا لأنه تركها دون أن يحاول مساعدتها .. هو فى نظرها مغرور بثقافته مفتونا بمعلوماته .. كانت تراه متعمدا إذلالها أو الاستهتار بها .. تصورته فى حديثه أمام الآخرين أنه يقصدها أو يلمح عنها .. أدركت أن لا شىء يجمع بينهما سوى الفراش .. كانت تحبه ولكنها تخشاه .. تحبه بلا ثقة . تريده حبا هلاميا بلا ثقافة أو خبرة أو اجتماعيات .. أرادته حبا منفردا غريبا لا

يدرى أو يتكلم .. لا يرى سلبياتها ولا يتكلم عنها .. وعندما فشلت في ذلك .. كرهته .. وكرهت حبه .. وكرهت كل لحظة تعايشت فيه معه .

وهكذا فى النهاية .. أصبح الحب هو الخائن .. أصبح الحب هو المسئول عن فشل حياتهما الزوجية .. بات الحب هو الإحساس الزائف الذى يخادع القلوب .. والحب فى نظرها ينبوع العذاب وطريق التحدى .. أصبح الحب بالنسبة لكل منهما كائنا بلا ضمير - داعيا للخطيئة .. هو القاتل للكرامة والكبرياء .. هو الأب لكل العنف .. والأم لكل السهاد .. والابن لكل الفساد .. وجاءت اللحظة لكى يضيع الحب .. ضاع وهو البرىء .. ضاع وهو المظلوم .. ضاع بين قلوب لا تعرف كيف تتعامل معه .

(٨)

بدأ الفجر يزحف ببطء شديد في محاولة لاختراق ستار الليل . الهدوء الصامت لا يتناسب مع أحاسيس القلق التى كانت تجوب داخل صدر عمرو . فهو حائر لا يعرف ماذا يحدث من حوله .. صديقه شريف ابتعد عنه بلا مبرر .. وصاحبة الشركة الجديدة تتحاشى التعامل معه .. الموظفون ينظرون إليه وكأنه سببا لكل الكوارث .. إنسانه وحيدة هى التى كانت تسعى إليه .. تحاول كسب مودته، إحساسها بالذنب جعلها دائمة التوتر، لاتعرف كيف تكفر عن خطيئتها مع صديقة الطفولة .. إلى أن جاءت الفرصة لفاطمة عندما التقى بها عمرو مصادفه داخل ردهة الشركة وبادرها قائلا :

- آنسة فاطمة .. ألم تصلك أخبار عن صفاء هانم ؟

أجابت بتلكأ :

- لا .. فى الحقيقة العلاقة بيننا ليست على ما يرام

- لدى إحساس بأن هذه المرأة مظلومة .. الا تشعرى بنفس الإحساس؟

رددت قائلة :

- طبعا .. طبعا .. أنا أيضا أشعر بذلك .

- ولكن .. لست أدرى كيف طاوعت نفسها لهذه العلاقة !

قالت بلا تردد :

- هى مظلومة .

تفحصها لبرهة قبل أن يتساءل :

- أهناك ما تخفيه عنى يا آنسة فاطمة ؟

صمتت لحظة مشحونة بالارتباك .. ثم أجابت :

- أخشى أن أفقدك .

لاحقها :

- ولا تخشى من عذاب ضميرك .. إذا كان لديك ما تخفيه عنى .. أرجوك أخبرينى به .. فالحيرة تشل تفكيرى .

أجابت باستسلام :

- تفضل إلى مكتبى .

و .. هناك فى مكتبها راحت فاطمة تسرد كل شىء بالتفصيل إلى عمرو، وهو منصت فى ذهول لا يعرف بماذا يعبر عن رد فعله .. شعر برغبة فى أن يصرخ فى وجهها .. أن يصفعها بقوة ..و.. أحست هى بما يدور فى خلده .. فسارعت قائلة :

- لا تقسو على بحكمك .. فأنا أيضا وقعت ضحية لهيام سالم إنها إنسانة شريرة، استطاعت أن تفرض سيطرتها على وجعلتنى أخون صديقة الطفولة .. كنت متصورة أن من خلال المال قد استطيع تغيير صورتى أمام عينيك .. أردت أن استميلك وها أنا الآن أشعر بأنك تضيع منى .

أجاب بجفاء :

– ألم تفكرى فى ضياع قلبين أحبا كل هذا الحب .. أنت لايزال أمامك الفرصة لكى تكفرى عن ذنبك .. تصرفى .

صمت لحظة ثم أردف :

– بل أنا الذى يجب أن يتصرف

وأسرع من أمامها إلى خارج مقر الشركة ..

كان يقود سيارته وهو شارد الفكر مع تساؤلات عديدة .. كيف سيخبر شريف بالحقيقة .. وما هو رد فعله .. ما هو مصير هيام سالم ونبيل عبدالهادى

هل سيغفر شريف لصفاء سقطتها ..؟ وهل ستغفر هى له موقفه المتشدد .. بل .. هل سيسامحهما الحب ؟!

وصل إلى منزل شريف وهناك أدخله عم حسين إلى الردهة ليجده جالسا فى شرود .. كان استقبالا فاترا .. وكأن لا شىء فى الحياة بات له معنى .. لم ينتظر عمرو طويلا وبادره قائلا :

– أنت تعلم إننى صديقك الوفى .. وأرجوك أن تأخذ حديثى إليك بجدية فائقة ..

وأسرد عمرو كل ما سمعه من فاطمة .. كان متحمسا تارة ومنفعلا تارة أخرى .. بينما سكن شريف أمامه وهو ينصت باهتمام .. ثم قاطعه فجأة :

- وأنت تحاول أن تقنعنى بصدق هذا الكلام .

أجاب بجدية :

- أنا لست كاذبا .

- أنت لست كذلك .. ولكنك مخدوع مثلى تماما .

نظر إليه بدقة قبل أن يقول :

- اسمع ياشريف .. لا تجعل العناد يأكل مشاعرك

ردد مسرعا :

- بل هى التى كانت عنيدة .. ومكابرة .. لم تحاول قط أن تفهم مشاعرى أو رغباتى .

- قل إنك لم تساعدها على ذلك .

نهض وهو ينظر إلى لا شيء .. ثم قال وكأنه يتذكر :

- بل حاولت .. كنت أتحدث معها ثم أشرح معنى حديثى، كنت أتساءل أمامها ثم أطرح الإجابة عليها .. كنت أثير أى موضوع ثم أناقشه وحدى بصوت مسموع .. حاولت كثيرا أن أجعلها تقترب من تفكيرى .. ولكنها كانت فى عالم آخر وقد يكون هذا العالم هو دنيا نبيل عبدالهادى .

تابعه حتى أصبح على مقربة منه .. وقال :

- لا تكن ظالما .. ثم وما أدراك أن أسلوبك هذا كان لايؤذى مشاعرها .. ويجعلها تشعر أنك تحط من شأنها .

- هذا لايمنحها حق خيانتى .

- هى لم تخنك .. يجب أن تصدقنى ..و..

فاجأه متسائلا :

- ألم تحبها ؟

- كنت أحبها .

همس :

- والآن .

أجاب شريف وكأنه يهذى :

- الآن أداوى جراحى بهيام سالم .

قال متهكما قبل انصرافه :

- أرجو ألا تزداد جراحك بهذه الطريقة .. كما أرجو أن تكتشف هذا قبل فوات الآوان

ولكن شريف لم يحاول أن يكتشف شيئا .. بل لم يكن لديه المقدرة على ذلك .. هيام سالم كانت تلاحقه فى كل مكان ... ظهرت أمامه فى صورة الملاك البرىء .. أشعرته بحاجتها الشديدة إليه .. وبأن الجميع يحاول أن ينال منها ومن حقوقها .. كانت بارعة فى أداء دورها لدرجة أنه أصبح يعيش داخل دوامتها بلا إرادة .

حتى صفاء لم تدع لعمرو فرصة كشف حقيقة الموقف .. كانت ثائرة .. مقهورة النفس .. ذبيحة الكرامة .. متعالية في عنادها قالت صارخة :

- انه لم يرحم توسلاتي إليه . ليساعدني في محنتي .

حاول أن يهدأ من ثورتها وهو يقول :

- لقد كان هو الآخر ضحية للمكائد .

سارعت قائلة :

- وما ذنبي أنا ..؟

- وما ذنب الحب ؟

أجابت بحزم :

- أين هذا الحب الذي تتحدث عنه .. لقد وقفت أمامه أتوسل إليه ليسمعني .. كنت في أشد الحاجة إليه ولكنه للأسف تخلى عني .. أنا الوحيدة التي ساندته في محنته . ولكنه قابل موقفي معه بصده لي وجبروته معي .

أراد أن يحسم الأمر قائلا :

- لتنسى الماضي .. وتبدأي من جديد حتى تتمكني من استرداد حقوقك ..و..

قاطعته بإصرار :

- القضاء سيعيد لى حقوقى .. وأنا لست فى حاجة لمساندته أما أنت وفاطمة فسأترككما لضميركما .. إذا أتيتما للشهادة فشكرا لكما .. وأما إذا ..

ولكنه أسرع يقول :

- كفى من فضلك ياصفاء هانم .. ولا تدعى ثورتك تفقدك ثقتك بكل من حولك .

وتركها منصرفا .

وهكذا باءت محاولات عمرو بالفشل .. وهو لا يدرى من هو السبب الحقيقى فى فشل مهمته .. هل هو العناد المتكبر .. أم مرارة الإحساس بالظلم .. هل السبب هو التفاوت فى المستوى الثقافى .. أم أن الحب وحده . حقا لايكفى !

ولكن كان للقدر كلمة أخرى .. أسرع من رغبات الجميع، ومن حكم القضاء . حيث تهيأت هيام سالم لاستقبال شريف فى منزلها، كانت قد اتخذت قرارها بألا تفوت هذه الفرصة مرة ثانية .. تجملت بأحلى زينتها واستجمعت كل أنوثتها واستعدت بأفكارها المرتبة، وسكنت فى انتظاره كالصياد المتمرس وهو يتربص لفريسته بلا كلل.

دق جرس الباب .. اتجهت مسرعة نحوه، ونبضات قلبها تتراقص فرحة .. ونشوة الانتصار تسبقها .. ولكنها .. ما أن فتحت للباب حتى كادت أن تسقط مغشية عليها .. وجدت نفسها وجها لوجه أمام نبيل عبدالهادى الذى لم ينتظر أن تسمح له بالدخول ..

ودخل بلا مبالاه قائلا :

- هل فاجأتك بزيارتى ؟

ازدردت ريقها بصعوبة قبل أن تجيب :

- لا أبدا .. تفضل

جلس وفى عينيه نظرة متربصة .. بينما تعمدت هى ألا تغلق الباب دونهما ، وكأنها تتوجس شرا منه .. ثم بادرها قائلا :

- أعتقد أن المهلة قد انتهت .

تساءلت بحذر :

- أيه مهلة ؟

ابتسم بفتور ثم قال :

- هل أحضرتى المبلغ ؟

اقتربت منه بخوف وهى تجيبه قائلة :

- أنت تعلم أن القضاء لم يقل كلمته بعد .

- أنا ليس لى دخل بكلمة القضاء .. أنا لى حق عندك وأريده الآن .

قالت بمذله :

- أنا لا أملك هذا المبلغ .. ولكنى سوف ..

نهض فجأه والشرر يكاد ينطق من نظرته إليها .. ثم قال بصوت أجش :

- اسمعى يا امرأة .. أياك أن تتصورى أننى مثل الجميع .. أنا لدى الخبرة بأمثالك جيدا .. ستدفعين المبلغ .. والآن .

وقفت بصعوبة، ثم قالت باستعطاف :

- امنحنى فرصة ثانية .

أجاب متحديا :

- وما المقابل .

استراحت لهدوئه، وتبدلت أسارير وجهها فجأة .. واقتربت منه لتلهبه بأنفاسها الدافئة .. وقالت بدلال مصطنع :

- سأمنحك نفسى .. عندما تأتى الشغالة من الخارج .. سأصرفها ونكون وحدنا

قال بلا تردد :

- نعم سآخذها .. ولكن بطريقتى .

و .. انقض عليها ممسكا بطرفى الإيشارب الذى حول عنقها وراح يجذبها بقوة وهى تحاول الصراخ من هول المفاجأة، تسترحمه بأن يتركها .. ولكن الشيطان كان قد تملكه تماما وأصم أذنيه وأعماه عن كل شىء .. وراح يضغط .. ويضغط حتى تهاوت أمام قدميه .. وكفت عن الصياح .. وعن التنفس .

وبهدوء شديد، وكأنه قاتلا مدربا تحرك ببطء فى اتجاه الباب وهو يلتفت حوله .. ثم انصرف .

ومضت دقائق قليلة وقف بعدها شريف أمام باب هيام سالم يطرقه برفق .. انتظر فترة ولم يجبه أحد .. ضغط على الجرس مرة ثانية .. وثالثة .. تراجع إلى الخلف تأهب للانصراف، وما كاد يفعل حتى توقف عندما لاحظ أن الباب مواربا .. تقدم مرة أخرى وطرقه بشدة لعل يسمعه أحد .. وانفلج الباب أمامه عندما استند بقبضته عليه ظهرت قدميها وهى مسترخية على الأرض .. اندفع إلى الداخل ليجدها فى صورتها المزعورة، وقد تدلى لسانها فوق جانب فمها وتجحظت عيناها فى جمود .. انتابه الفزع الشديد وهو ينحنى فوقها ليخلص عنقها من ضغط الإيشارب

وفى هذه اللحظة الكئيبة دخلت الشغالة لتجد رجلا جاثيا فوق مخدومتها بهده الطريقة، ولم تجد سوى وسيلة الصراخ بكل قوتها وتعود لأدراجها مرة أخرى وهى تولول بصيحات هستيرية مرددة :

.. أغيثونى .. القاتل بالداخل .

وما هى إلا لحظات تجمع بعدها حشد من الجيران، وبرفقتهم حارس البناء واقتحموا الشقه ليمسكوا بالقاتل .. بينما سكن شريف فى ذهول وهو يردد بصوت هزيل

.. لست أنا .. أنا لم أقتلها .

ولكن هيهات أن يصدقه أحد .. حتى أن بعضهم تجاوز فى انفعالاته وراح يكيل إليه اللكمات بقوة .. وتطوع أحدهم بإخطار الشرطة التى حضر رجالها فى دقائق ..و..

تم القبض على شريف بتهمة قتل هيام سالم .

وأمام المحقق حاول شريف بكل الطرق إثبات براءته من هذه الجريمة .. ولكن كل الأدلة كانت تشير إليه بأصابع الاتهام..

أقوال الشغالة والشهود .. تواجده منفردا مع القتيلة .. علاقته السابقه بها .. كلها أسباب كافية لإدانته والشك فيه .

وفى اليوم التالى ظهرت صوره على صفحات الجرائد مع عناوين مثيرة، ذادت من صعوبة موقفه .

.. أستاذ جامعى يقتحم شقة فتاة ويقتلها .

.. الغيرة هى الدافع للجريمة .

.. قصة حب فاشلة تنتهى بجريمة قتل .

ووقع هذا النبأ كالصاعقة فوق رؤوس الجميع .. موظفو الشركة فى هرج وهم يتناقلون الأنباء وكل منهم لديه تصور خاص..

عم حسين خادمه الأمين كان يولول بجنون .. فاطمة انتابتها حالة من التبلد .. عمرو كان يهذى كالمعتوه وهو يثرثر بكلمات ينفى بها إمكانية حدوث تلك الجريمة من جانب صديقه الحميم .

أما صفاء فقد انهارت مقاومتها وسقطت تحت وطأه الآنهيار العصبى .. الجميع لا يصدقون ما حدث .. ولكن احتمالات الشك كانت قائمة عند البعض .

وصل عمرو إلى شقة صفاء وهو فى حالة شديدة من التوتر ليجدها هى الأخرى فى شبه انهيار .. وبادرته قائلة :

- كنت فى طريقى إليك ياأستاذ عمرو .. أنا حـائرة ولا أعـرف مـاذا يمكننى أن أفعل .. لا يمكن أن يكون ذلك هو مصير شريـف .

يجب أن نفعل المستحيل .

أجاب يائساً :

- هدئى من روعك .. ولكن .. ماذا يمكننا أن نفعل

قالت بحدة :

- أنا فعلت بالفعل .. وعليك أنت الباقى ..و..

ثم غابت للحظات داخل غرفة نومها وعادت وهى تحمل لفافـة فـى يدها وأعطتها له قائلة :

- خذ هذا المبلغ واستعين بأكبر محامى فى البلد

تردد قليلا قبل أن يتساءل :

- ولكن من أين لك بهذا المبلغ الكبير .

- تصرفت .

قال بإلحاح :

- من أين .؟

همست بنبرة ضعيفة كأنها لا تريده أن يسمع .

- بعت سيارتى المرسينس .

- كيف تفعلين ذلك .. هو استعان فعلاً بمحامى

ولكنها قاطعته منفعلة :

- وسأبيع شقتى .. وكل شىء .. المهم عندى تنقذ شريف من هذه الورطة .

قال بارتياح :

- كنت أعلم أن بينكما حب كبير .. ولكن كان يدهشنى موقف كل منكما تجاه الآخر .

أجابت باستعطاف :

- كل ما أرجوه منك أن تجعل المحامى يحدد لنا لقاء مع شريف .. أريد أن أراه .. يجب ألا يشعر بانه وحيد .. أريد أن أراه ياأستاذ عمرو .. أرجوك ..و..

انخرطت فى بكاء شديد، بعد أن فشلت فى الحفاظ على مقاومتها لكى تبدو فى صورة ثابتة .. وأخذت تردد :

- إننى أحبه .. أحبه بكل جوانحى

تقدم نحوها بخطوة وربت على كتفها برفق .. ثم قال :

- صدقينى .. لو أدرك شريف حقيقة مشاعرك هذه، لهانت عليه كل كارثة .. وأعدك أن أحقق لك مطلبك فى أسرع وقت .

وتركها منصرفا .

ومضت الأيام كئيبة فى حياة صفاء، وهى شاردة الفكر .. حائرة .. نسيت أزمتها الحقيقية فى الشركة .. وأزمتها مع موقف

شريف منها .. كان هدفها الوحيد هو إنقاذه بكل الطرق .. كادت أن تجن .. لولا اتصال عمرو بعد عدة أيام ليخبرها بأن المحامى قد نجح فى تحديد موعد للقائها مع شريف ..

كانت لحظات مثيرة .. تحمل فى طياتها كل المشاعر المتناقضة ما بين الحب والخوف والقلق والترقب .. لحظات تسللت من الزمن الخارجى ، لتجمع بينهما فى عالم منفرد وكأنهما الوحيدان على ظهر الأرض .

جلست أمامه وهى تجاهد فى إخفاء رجفة شديدة تصول وتجول فى جسدها .. ثم قالت فى توتر :

- إنشاء الله سوف تتحسن الأمور

أجاب بهدوء شديد :

- لا يهمنى سوى شىء واحد .

نظرت إليه فى صمت .. بينما أردف هو قائلا :

- هو أن أعرف شعورك نحو موقفى .. هل تصدقين أننى ممكن أن أكون قاتلا .

سارعت بحماس :

- لا .. لا بالطبع .. أنا متأكدة أنك برىء ..و..

قاطعها بارتياح :

- الآن لا يهمنى ماذا سيحدث .

اجابت بثقة :

- ستظهر براءتك ياشريف .. ستعود لنا سالما

أسرع قائلا وكأنه تذكر شيئا فجأه :

- لثانى مرة ياصفاء تقفين معى موقفا نبيلا .

- ماذا تقصد ؟

- لقد أخبرنى عمرو بموضوع بيع سيارتك من أجل الحصول على أجر المحامى .

صمتت برهة قبل أن تقول :

- المهم أنت ياشريف .

تساءل باهتمام .

- وماذا عن قضيتك ؟

أطلقت زفرة من صدرها .. ثم أجابت :

- لقد تحددت جلسة النطق بالحكم الأسبوع القادم .

- كل أملى أن تستردى حقوقك فى الشركة .

تنهدت فى يأس قبل أن تقول :

- لا يشغلنى الآن إلا أنت .

مد يده ووضع كفه فوق يدها برفق شديد، وما كاد ينطق بحرف حتى جاء بينهما من يقول بحزم :

- هذا يكفى .. الزيارة انتهت

أحست بقلبها وكأن هناك من ينتزعه من صدرها بقوة .. بينما تسمرت نظرته إليها وكأنه يتوسلها أن تحضر لتراه مرة أخرى ..و.. توارى من أمامها .

خرجت من الغرفة وهى تجفف دموعها التى انزرفت بغزارة بمجرد انصرافه من أمامها .. وجدت عمرو فى انتظارها بالخارج وما أن لمحته أمامها لم تستطع مرة أخرى أن تتماسك وراحت تبكى بمرارة شديدة .

قال وهو يهدئها :

- اطمئنى ياصفاء هانم .. سينصره الله ويكشف الحقيقة .

أجابت وهى جاهشة فى البكاء :

- مسكين شريف .. إنه أنبل من أن يتعرض لموقف كهذا.

وما كادا يتأهبا للانصراف ، حتى توقفا عندما ظهرت فاطمة وهى تتقدم نحوهما فى ثبات .. وهنا بادرها عمرو قائلا :

- آنسة فاطمة .. ما الذى أتى بك إلى هنا .. أنت تعلمين أن الزيار ممنوعه إلا بتصريح .

سكتت لحظة قبل أن تقول :

- أنا لم أحضر للزيارة .

رمقها بنظرة حائرة .. ثم قال :

- إذ كان الأمر كذلك .. فلماذا إذن ..؟

ولكنها قاطعته وهى تنظر إلى صفاء بتقدير كبير .. قائلة .

- أعتقد أن دورى قد حان لكى أفعل شيئا أنا الأخرى .

انتبهت صفاء إليها وهى تقول متسائلة :

- أى دور يمكنك أن تقدميه يا فاطمة ؟

اتجهت فاطمة بنظرتها إلى عمرو وهى تحمل معان محددة ثم قالت بثقة :

- مثلى مثل أى إنسان لا يتعامل إلا من خلال ضميره اليقظ دائما .. وهى لحظة صدق لايعوضها عمر الزمن نفسه .

تدخل عمرو فى الحديث قائلا :

- آنسة فاطمة أنا لا أفهمك .. كلماتك كالألغاز

ابتسمت ابتسامة هادئة وهى تجيبه قائلة :

- قد يكون تصرفى هذا مدخلا لكى تفهمنى يوما .

وقبل أن يسترسل في كلماته معها .. تجاوزتهما فى خطوات ثابتة واتجهت إلى مكتب وكيل النيابة المحقق .. وطرقته طرقات خفيفة ثم دخلت .. ووقفت أمامه بثقة قائلة :

- أنا عندى معلومات هامة عن القضية المتهم فيها الدكتور شريف فريد .

أجابها بهدوء :

- تفضلى

وبدأت فاطمة تسرد القصة كاملة أمام وكيل النيابة .. ذكرت له كيف استطاعت هيام سالم أن تستولى على الشركة بغير وجه حق .. وكيف ساعدتها بمدها بالمعلومات عن صفاء .. ومتى ظهر نبيل عبدالهادى والدور الذى لعبه فى مطاردة صفاء أولا ثم مطاردته لهيام بعد ذلك .

كانت تلك المعلومات كفيلة أن تغير مجرى التحقيق تماما..

وتحولت أصابع الاتهام تجاه نبيل عبدالهادى .. وبدأت المباحث تقوم بأداء مهمتها فى تلك القضية .

كان لموقف فاطمة أثره العظيم فى نفس عمرو تجاهها مما دفعه لأن يذهب إليها فى مكتبها على غير موعد .. وبادرها قائلا :

- كنت علي يقين بأنك إنسانة عظيمة .. وأن قلبك ينبض بالسلام والوفاء .

ابتسمت بهدوء قبل أن تقول :

- لا أستطيع أن أنكر بأنك صاحب الفضل فى هذا .

قال مسرعا :

- بل هى طبيعتك ياآنسة فاطمة .. وهذا ما يجعلنى أن أبوح لك بحقيقة كنت أخفيها لحين موعدها

اضطربت فى نشوة متسائلة :

- أى حقيقة ؟

حاول أن يخفى اضطرابه وهو يقول :

- الحقيقة أننى ...

ولكنه توقف عندما ارتفع رنين التليفون أمامها .. وانشغلت عنه للحظات .. كانت المتحدثة هى صفاء .. وفجأه بدأت تصيح فى هستيرية .. والسعادة تكاد تتراقص فوق أسريرها وهى تردد :

.. حمداً لله .. ألف مبروك .. إن الله لا يقبل الظلم أبدا وتعددت منها عبارات التهنئة .. ثم وضعت السماعة والتفتت إلى عمرو مرة آخرى .. وقالت بسعادة :

- لقد صدر حكم القضاء اليوم لصالح صفاء .. وبذلك يمكنها استرداد شركتها وكل حقوقها .

نهض عمرو والفرحة تملأ عينيه قائلا :

- أشعر بأن اليوم من أسعد أيام حياتى

وقفت فى مواجهته وهى تنظر إلى عينيه قائلة :

- صفاء تستحق كل هذا الحب والإخلاص .

اقترب منها بخطوة .. ثم قال بتردد :

- وأنت .

- أنا !!

أجاب مسرعا :

- نعم أنت يافاطمة

لاحظت انه ذكر اسمها دون أن يسبقه بكلمة آنسة كما اعتادت منه .. فأشتد اضطرابها وهى تتساءل :

- أنا لا أفهمك .

- ولكنى فهمت نفسى .. فأنا أحبك يافاطمة وأرجو أن تمنحينى حق السعادة بقبولك الزواج منى .

شعرت برغبة شديدة بأن تندفع إليه وتلقى بنفسها داخل أحضانه .. ولكنها تماسكت بكل طاقتها وهى تهمس :

- كنت انتظر تلك اللحظة منذ فترة طويلة .. فامنحنى أنت الحق فى تلك السعادة .

وتشابكت أصابعهما برفق وكل منهما ينظر إلى الآخر فى صمت أبلغ كثيرا من كل حديث .

كانت الأحداث تتوالى بسرعة كبيرة فيما بعد .. حيث تم القبض على نبيل عبدالهادى، بعد أن أدلى باعترافات كاملة فى حادثة قتله لهيام سالم، فلم يستطع تحمل محاصرة أسئلة وأدلة رجال المباحث وذكر الحقيقة بكل تفاصيلها

وفى اليوم المحدد لجلسة محاكمة الدكتور شريف كانت صفاء تتخذ لنفسها مكانا داخل قاعة المحكمة قبل موعدها بساعات، والقلق يعبث بمشاعرها بقوة . والخوف يلازم دماء عروقها فى مسيرته .. كانت أشبه بطفلة فقدت ذويها فى لحظة واحدة .. وكأنها طائر يهوى إلى الأرض بعد أن أصابته طلقة من عابث .. أدركت فى تلك اللحظة أن المجهول قد يكون أكثر رعبا من إحساسها بالواقع الظالم .. كأنها تنتظر حكما بإعدامها .

التفتت تجاه القضبان التى تضم المذنبين .. تخيلت شريف وهو يصرخ قائلا .. أنا برىء تخيلته يبكى .. ويستغيث بضمير العالم .. بل ويستغيث بها .. لم تستطع أن توقف سطوة دموعها التى راحت تنزرف بشدة من بين جفونها ..و..

انتبهت لتواجد حشود كثيرة وهم يتخذون أماكنهم فوق المقاعد .. وما هى إلا لحظات حتى ظهر شريف برفقة حارسه وراء القضبان .. حاولت أن تنهض ولكنها شعرت بشلل مفاجىء يحبط محاولاتها .. اكتفت بالنظر إليه .. ورضيت بنظرته إليها .. وما أروعه حديث الصمت .

وفى لحظة مات فيها كل شىء .. لحظة وصول هيئة المحكمة سكنت الحركة .. وتوقفت الأنفاس .. وما أن أعلنت المحكمة براءة شريف حتى ضجت القاعة بالصياح والضوضاء والتصفيق .. بينما كاد أن يضيع صوت الدكتور شريف وهو يصرخ موجهاً كلماته لصفاء مرددا :

- هل صدقتينى الآن ياصفاء .. ألم أقل لك إنى برىء ؟

وهى تومىء برأسها بالموافقة والدموع تحول دون رؤيتها لأى شيء فى صمت تام .

لاحظ عمرو أن صفاء تشق طريقها بصعوبة فى اتجاه الباب الخارجى وليس فى اتجاه قفص الاتهام ..

صاح مناديا عليها ولكنها لم تستجب .. و أنها لم تسمع ..

وانطلقت خارج القاعة لتستوقف تاكسيا وتخبره بأن يتجه إلى سراى النيابة .. فهى تعلم أن هناك سوف تلتقى بشريف بعد انتهاء إجراءات الإفراج عنه . كان الوقت يمر وهى واقفة خارج مبنى النيابة، وكأن كل ثانية تجر خلفها دهر من الزمان . شعرت بالاحباط ... مضى الوقت دون أن تراه .. وفجأة .. أحست بأن الشمس اقتربت كثيرا من الأرض .. وبأن ينابيع المياه أخذت تتدفق من كل مكان لتروى الأرض الجرداء .. شعرت بأن الحياه غير الحياة .. وبأن كل وجوه الدنيا مبتسمة .. لقد ظهر شريف أخيرا، وما كاد أن يراها حتى أطلق لساقيه العنان متجها نحوها .. والتقيا فى عناق صامت طويل .. ثم بادرها قائلا :

- كنت أخشى أن تظنى بى السوء

قالت بين ضاحكة وباكية :

- كيف أظن بك السوء وأنت أغلى ما عندى ؟

بدأ يتماسك وهو يقول :

– لقد علمت إنك بعت سيارتك وشقتك من أجلى .. فكيف أرد لك هذا الجميل .؟

أجابت وقد استعادت بعض هدوئها :

– المال يمتلكه الكثير غيرنا .. أما الإحساس الصادق فهو النادر الآن.

سار بضعة خطوات بجانبها فى صمت .. ثم قال :

– هناك شيء لا أفهمه .. ليتك توضحينه لى .

تساءلت وهى فرحة :

– ما هو ياغالى ؟

تساءل بجدية :

– لماذا لم تخبرينى بموضوع نبيل عبدالهادى ؟

شعرت وكأنه أزاح عن جسدها كل سترتها وبأمعائها تقذف إلى حلقها مرارة كل السنين .. ثم .. همست بصعوبة :

– أنت لم تمنحنى الفرصة .

أجاب مسرعا :

– بل أنتى التى لم تحاولى أن تفهمينى .

التفتت إليه وهى تقول :

– وأنت .. هل حاولت أن تفهمنى ؟

- أنا منحتك حبى .. واسمى .. ومركزى .

قالت بحدة :

- كل ما فكرت فيه هو نفسك .. ولم تفكر لحظة فى الإنسانة التى تعيش معك .

توقف عن السير .. والتفت إليها قائلا :

- كيف تقولين هذا .. لقد حاولت أن تتواءمي معى .. ولكنك كنت ...

قاطعته بغضب :

- جاهلة .. تقصد لأنى جاهلة فلم أستطع التوائم معك .. أو مع مشاعرك .

ازدرد ريقه قبل أن يقول :

- لقد كنتى عنيدة .. العناد هو هدفك . لم تحاولى قط أن تمنحى للمشاعر فرصة .. كل تفكيرك كان من منا يكسب الجولة .. وكنت أنا دائما الخاسر، لأننى فشلت فى التعامل معك وبطريقة أسلوبك .

تقلصت أسارير وجهها وهى تقول :

- بل أنت الذى كنت دائما تحاول أن تتعالى على وعلى الآخرين . هناك الآلاف مثلك المتعلمون .

كاد أن يصرخ وهو يقول :

- أنت كما أنت .. لا زلت عنيدة تحاولى المكابرة على غير أساس ..و..

قاطعته بحدة :

- بل أنت الذى تحاول أن تقلل من شأنى ..

فأنا صاحبة مال .. وجمال .. وشباب .. وأنت لا تملك غير ثقافتك .. فأجعل ثقافتك تلك تفيدك وسط الآخرين .. والأيام بيننا .

وكأنها لحظة الصدق التى هى خير من عمر كاذب قد تواجدت بينهما .. أو أنها كلمة حق للواقع .. قال شريف بلا إرادة :

- يبدو أننا لا زلنا مختلفان .

ابتسمت بسكينة غريبة ثم قالت .

- يبدو أنك لازلت لا تعرف معنى الحياة .

قال هادئا :

- إذن حياتى هى ليست حياتك .

أجابت بجرأة :

- أنت واهم ياشريف .

قال ببرود :

- قولى .. إننى كنت واهم .

قالت بثقة :

- إذن .. ليس أمامنا غير الفراق

تحرك بخطى بطيئة وهو يقول :

- فراق القلوب بتفاهم .. خير من تعايش الحب بجهل .

لم تنتبه لما قاله .. وارتفعت نبرتها قائلة :

- أنت لازلت مغرورا .

أجاب بهدوء شديد :

- إذن كلانا فى طريق .

وبلا إرداة قالت .

- نعم .. أنت فى طريق وأنا فى طريق ..و..

وقبل أن تكمل حديثها كان شريف قد اتخذ طريقه فى اتجاه آخر غير طريقها .

وقفت ساكنة تراقبه للحظات .. حاولت أن تسير فى الاتجاه الآخر .. ولكنها توقفت للحظة تنظر إلى التفاتته نحوها .. وهما يعلمان جيدا أن كل منهما يردد فى نفسه كلمة واحدة .. هى سامحنى ياحب .

.. انتهت ..

.. أحمد فريد محمود ..